

# النشر الإسلامي

## (١) القرآن

### (١-١) نزوله وكتابه

القرآن كتاب الوحي الذي أنزل على النبي محمد، وكان نزوله حسب مقتضى الحال، منجمًا سُورًا سُورًا، وآيات آيات، وقد ظل ينزل عليه من نحو سنة ٦١٢ م. إلى سنة ٦٣٢ م. منها عشر آيات في المدينة، وأول ما أوحى إلى النبي في غار حراء: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ \* خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ \* أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ \* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ \* عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾<sup>٢</sup> وآخر ما أوحى إليه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.

وكان كلما نزل شيء منه تلاه النبي على من حضر من صحابته فيحفظه بعضهم، ويكتبه بعضهم الآخر في سعف النخل، أو في رقاع من الجلود، أو في عظام مسطحة، أو حجارة رقيقة.

ولما مات النبي واستعرت الحرب بين المسلمين والمرتين، قُتل كثير من حفظة القرآن، فخاف عمر بن الخطاب عليه من الضياع، فأشار على أبي بكر بجمع الرقاع المكتوبة، وكتابة ما حُفظ في صدور الرجال ولم يكتب في الرقاع. فعهد أبو بكر في ذلك إلى زيد بن ثابت أحد كتبة الوحي، فجمع الآيات المكتوبة، وكتب الآيات المحفوظة في صدور الرجال، وسلمها إلى أبي بكر فحفظها في بيته، فلما توفي حُفظت في بيت عمر، فلما توفي حُفظت في بيت حفصة زوج النبي وبنات عمر.

وفي خلافة عثمان انتشر حفظة القرآن في حواضر البلاد المفتوحة، وعند بعضهم نسخ رتبها كل واحد على هواه. فاختلفوا في قراءة بعض آياته، فبلغ ذلك عثمان، فتلافى الأمر وجاء بالرقاع المحفوظة عند حفصة، وعهد إلى زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام في نسخها، وقال لهم: «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء فاكتبوه بلسان قريش، فإنما أنزل بلسانهم.» ففعلوا ذلك، وكتبوا أربعة مصاحف، أرسلها عثمان إلى مكة والبصرة والكوفة والشام، واثنين أبقيهما في المدينة: واحدًا لأهلها وواحدًا لنفسه. ثم أمر بإحراق ما كان قبل ذلك من المصاحف والصحف، فأحرقت جميعًا إلا بعض نسخ ذكر منها صاحب الفهرست مصحف علي، ومصحف عبد الله بن مسعود، ومصحف أبي بن كعب، وكان لكل واحد منها ترتيب خاص في سوره. أما القرآن اليوم فنسخة عن مصحف عثمان المعروف بالإمام.

### (٢-١) أقسامه

يُقسم القرآن فصولًا تُعرف بالسور، والسور مقاطع تُعرف بالآيات، وفيها الناسخ والمنسوخ،<sup>٢</sup> وتسمى السور باعتبار نزولها مكية وعددها ثلاث وتسعون سورة؛ ومدنية وعددها اثنتان وعشرون، والمكية غالبًا أقصر من المدنية، وقد رتبها جامعو الكتاب باعتبار الطول والقصر، فالسور الطوال في أوله، والقصار في آخره؛ إلا سورة الفاتحة فإنها مع قصرها في صدر الكتاب.

ويقسم المسلمون القرآن ثلاثين جزءًا يقرءون منه قسمًا في كل حفلة، أو صلاة.

### (٣-١) أغراضه

يخاطب القرآن في سوره المكية شعبًا غير مؤمن، فيدعوه إلى ترك عبادة الأصنام، وأن يعبد الله وحده، ويؤمن بالرسول والكتاب المنزل. فيظهر له عظمة الخالق، ويحثه على التأمل بعجبية خلق الإنسان وسائر المخلوقات: كالشمس والقمر والنجوم والرياح والليل والنهار، ويرشده أن في الآخرة لثوابًا وأن في الآخرة لعقابًا؛ فيقص عليه أخبار الأنبياء والمرسلين وأخبار شعوبهم، وكيف كان جزاء المؤمنين، وكيف كان عقاب الكافرين، وهو في أثناء ذلك يتناول صناديد قريش فيسفه آراءهم، ويرد على الذين يجادلون النبي أو

يستهنئون منه فيهددهم، ويحقر أصنامهم، ويبين لهم أنها لا تجدي عابدها نفعًا، ولا تضر من يكفر بها. ويفيض في وصف الجنة. وما أعد فيها للذين آمنوا من نعيم خالد؛ ويفيض في وصف النار، وما أعد فيها للذين كفروا من عذاب خالد. فترى في وصف الجنة أَرغب تأميل، وترى في وصف النار أَرهب تهويل.

ويخاطب في سوره المدنية جماعة مسلمة تؤمن بالله ورسوله، وبكتابه المنزل، ولكنها تجهل شرائعها وطرق عبادتها، فيعلمها ما لم تعلم، ويفرض عليها الصوم والزكاة والحج، ويبين لها ما حُرِّم عليها وما أُحل لها، ويسُن نظم الزواج والطلاق والميراث، وحجاب المرأة، والجهاد في سبيل الله ورسوله، وكان في المدينة يهود يجاهدون النبي ويؤلبون عليه، ويغرون ضعيفي الإيمان بالارتداد عن الإسلام، فتعرض لهم القرآن، وذكَّره ما أنعم الله على آبائهم بني إسرائيل، وتوعدهم لتكذيبهم بالرسول، ودعاهم إلى تصديق دعوته.

وكان فيها منافقون يبطنون الكفر ويظهرون الإيمان، وكانوا يذيعون الأخبار عن حروب المسلمين فيتأذى النبي، وتضعف قلوب المؤمنين؛ فتناولهم القرآن وندد بهم وهددهم.

وإذا رأى في المسلمين تقهقرًا، أو ضعفًا، أو شقاقًا، دعاهم إلى الألفة، وأنبهم على الانهزام، وحضهم على القتال، وذكَّره أن الموت في الجهاد مغفرة ورحمة. ولم يكن في الحجاز نصارى يقاومون الدعوة، فلم يتعرض لهم القرآن كثيرًا، وهو في كلامه عليهم أرفق بهم منه باليهود.

والقرآن في السور المدنية كما في السور المكية يردد ذكر الأنبياء وأخبارهم، وما أنزل إليهم، ويدعو الناس إلى الإيمان، واصفًا لهم الجنة والجحيم، مظهرًا قدرة الله في مخلوقاته.

## (٤-١) إنشاؤه

القرآن هو المثال الأعلى للبلاغة، سواء في إيجازه، أو في قوة تعبيره، أو في ائتلاف ألفاظه وانسجام كلماتها، ويمتاز بركته وسهولته، وبُعدّه من الغريب المستهجن، ولقاطعه رنة لذيدة، ظنها الأعراب في أول أمرهم شعرًا، حتى نزلت الآية: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾، وقد يوازن القرآن ويسجع، ولكنه لا يتكلف السجع ولا الموازنة.

وإنشاء القرآن يرافقه أغراضه في الشدة واللين، فهو في المواقف العاطفية، مواقف الوعد والوعيد، قصير الآيات، فيه لفظ مكرر لزيادة التهويل، أو لزيادة التقرير؛ كثير السجع، قوي الرنة عند المقاطع، وأغلب ما يكون ذلك في السور المكية، ولا سيما السور القصار كسورة القارعة: ﴿الْقَارِعَةُ \* مَا الْقَارِعَةُ \* وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ \* يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ \* وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ \* فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ \* فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ \* وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ \* فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ \* وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ \* نَارٌ حَامِيَةٌ﴾<sup>٤</sup>.

وهو في غير المواقف العاطفية طويل الآيات، قليل السجع، خفيف الرنة عند المقاطع. وأغلب ما يكون ذلك في السور المدنية، ولا سيما آيات الشرع، وما كان منها في غير الغزوات، وفي غير الوعد والوعيد، كقوله يشرع الصوم في سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ \* أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ<sup>٥</sup> فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ<sup>٦</sup> وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ<sup>٧</sup> فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ<sup>٨</sup> فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا<sup>٩</sup> فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ<sup>١٠</sup> وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ<sup>١١</sup> إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

## (٥-١) تأثيره

للقرآن فضل عظيم على اللغة العربية، فهو الذي هذب عبارتها، ووحده لهجاتها، ونشرها شرقاً وغرباً بانتشار الدين الإسلامي.

وسحر الناس ببيانه فحفظوه، وأثر فيهم أسلوبه، فرقت ألفاظهم، ولطفت معانيهم، وظهر هذا التأثير في الشعر والنثر معاً ولا سيما الإنشاء الخطابي. ومن فضله على اللغة أن علم النحو وضع خدمة له وإشفاقاً من اللحن في قراءته، وأن علم المعاني وضع توصلًا لمعرفة أسرارها، وأن أشعار العرب في الجاهلية و صدر الإسلام جمعت ليستعان بها على تفسير آياته.

ولولا القرآن لتلاشت العربية بغارات التتر والأترك، بعدما أديل من سلطان بني العباس، ولكنه وقف في وجه الفاتحين والمكتسحين، يدافع عن لغته الفصحى، فلم يجرؤوا أن يتعرضوا لها بسوء بعد أن أسلموا فظلت لغة الدين والدواوين والمراسلات،

ولم يؤثر فيها انتشار اللهجات العامية، وطُمُطمانية الأعاجم. فاللغة — كما ترى — مدينة بأدابها وحياتها للقرآن.

## (٢) الخطابة

### (١-٢) أسباب ازدهارها

لم تزدهر الخطابة العربية في عصر من العصور مثل ازدهارها في صدر الإسلام، فقد كانت العوامل متوافرة لشيوع هذا الفن وتقدمه، فمن فصاحة فطرية في العربي، إلى براعة التصرف في ضروب الكلام، ومن انقلاب ديني عظيم، إلى انقلاب سياسي عظيم، ومن حروب وفتوح، إلى خروج وعصيان وأحزاب.

فقد جاء الإسلام، وهو دين جماعي، فكانت الخطب الدينية تلقى في الجوامع. ثم استعرت حروب الفتح والحروب الداخلية، وانقسمت الجماعة أحزابًا من أجل الخلافة، فكانت الخطب العسكرية تُضرم بها الحماسة في صدور الرجال؛ وكانت الخطب السياسية يلقيها الزعماء على أحزابهم لتشد أزرهم، أو يردوا بها على خصومهم ليدحضوا أقوالهم، أو يخاطبوا بها بلدًا عاصيًا ليدعوه إلى الطاعة. فلا عجب إذًا أن يكون للخطابة شأن عظيم في ذلك العهد وهي تعتمد على الدين من ناحية، وعلى السياسة من ناحية أخرى، ولا عجب أيضًا أن تكون الحاجة إلى الخطيب أشد منها إلى الشاعر، فيعنى الخلفاء باختيار ولاتهم ممن عُرفوا بالفصاحة ومضاء اللسان؛ لأن الخطيب المُصقع يستطيع أن يستفيض في غرضه منطلقًا من القيود، فيتوصل إلى غايته من إقناع الجمهور أكثر مما يستطيع الشاعر المكبل بالوزن والقافية.

### (٢-٢) عاداتهم في الخطابة

كان العربي إذا وقف خطيبًا قام على نَشْرٍ<sup>١</sup> من الأرض أو على ظهر دابة، وأخذ بيده مَخْصَرَةً<sup>٢</sup> يشير بها، أو اعتمد على سيف أو قوس أو قناة.

وصُنَّ للنبي أول منبر في مسجد، صنعه تميم الداري، وكان قد رأى منابر الكنائس في الشام.

وروي أن الوليد بن عبد الملك أول من جلس خطيبًا في الناس، واقتدى به بعض الخلفاء والعمال، ولكن عادة الوقوف ظلت أكثر شيوعًا واتباعًا.

وكان العرب إذا خطبوا يشيرون برفع اليد ووضعها على غير إكثار، ولا يبالغون في الاهتزاز.

وكانوا يعييون في الخطيب التشديق،<sup>١١</sup> والتقدير،<sup>١٢</sup> والتفهيق،<sup>١٣</sup> والتزيد في جهازة الصوت، وهذل الشفاه،<sup>١٤</sup> والهذر، والتكلف، والإسهاب، والإكثار، والتوعر لأنه يُسلم إلى التعقيد، والتعقيد يستهلك المعاني ويشين الألفاظ، ويكرهون اللحن، والتردد، واضطراب اللسان، وفساد مخارج الحروف، والتنحنح، والسعال، ومسح اللحية، وكل حركة يستعان بها على البيان.

وكانوا يمدحون شدة العارضة،<sup>١٥</sup> وظهور الحجة، وثبات الجنان، وكثرة الريق، والعلو عن الخصم، ويحبون الطلاقة، والتحبير،<sup>١٦</sup> والبلاغة، والتلخص، والرشاقة.

### (٣-٢) ميزة الخطابة

تمتاز الخطابة في صدر الإسلام بطلاوة أسلوبها، وقصر جملها، وتخير ألفاظها. والخطب على ضربين: منها الطوال التي كثر فيها الإطناب، ومنها القصار التي غلب عليها الإيجاز مع بلوغ القصد، وقصارها أكثر شيوعاً من طولها، وكانت تبدأ بالحمدلة،<sup>١٧</sup> وكثيراً ما تعتمد على الآيات؛ لما للقرآن من التأثير في نفوس المسلمين؛ وربما جاءت الخطبة برمتها مجموعة آيات كخطبة مصعب بن الزبير لما قدم العراق داعياً أهله إلى مبايعة أخيه عبد الله.

وكثر عدد الخطباء في هذا العصر لكثرة الحاجة إليهم، وكان النبي خطيباً، والخلفاء الراشدون جميعاً وأخطبهم الإمام علي، واشتهر الخوارج بجزالة ألفاظهم، وبلاغة منطقتهم، ومنهم قَطْرِيُّ بن الفجاءة، وله خطبة بليغة في ذم الدنيا. وضُرب المثل بفصاحة سحبان وائل، ولكن لم يصل إلينا من آثاره إلا شيء قليل، وكان يطيل الخطبة حتى يسيل عرقاً ولا يتوقف ولا يقعد حتى يفرغ من غرضه. ونكتفي بدرس خطيبين شهيرين يمثلان ميزة الخطابة في عصرهما أحسن تمثيل، ألا وهما زياد ابن أبيه والحجاج.

### (٣) زياد ابن أبيه (٦٧٢م/٥٣هـ؟)

#### (١-٣) حياته

هو زياد ابن أبيه، وزياد بن سُمية، وزياد بن أبي سفيان، وزياد بن عُبَيْد،<sup>١٨</sup> لأنه لم يكن له أب شرعي يُعرف به، وُلد بالطائف في السنة الثامنة للهجرة، وقيل في السنة الأولى، وأمه سمية مولاة للطبيب الحارث بن كَلْدَةَ الثَّقَفِي. وظهرت النجابة على زياد منذ حادثته فُعرف بالفصاحة والدهاء، والحزم والشدة. ولما نشأ استكتبه أبو موسى الأشعري، وهو على البصرة من قَبْل عمر، فأعجب به الناس. ثم عهد إليه عمر في مهمة فأحسن القيام بها، ولما عاد خطب في حضرة عمر، وعنده المهاجرون والأنصار، فدهشوا لفصاحته وقال عمرو بن العاص، وكان حاضرًا: «لله در هذا الغلام! لو كان أبوه قرشيًّا لساق العرب بعصاه!» فقال أبو سفيان: «إني أعرف أباه.» فقال عمر: «من هو؟» قال: «أنا هو.» وبهذا القول تمسك معاوية حين استلحق زيادًا بأبيه.

#### (٢-٣) ولايته على فارس

ولما استُخلف علي استعمل زيادًا على فارس فأخمد ثورتها وضبطها وحمى قلاعها. فساء ذلك معاوية فكتب إلى زياد يتوعده ويعرّض بولادة أبي سفيان إياه. فلما قرأ زياد كتابه قام في الناس خطيبًا وقال: «العجب كل العجب من ابن أكلة الأكباد، ورأس النفاق! يخوفني بقصده إياي، وبينني وبينه ابن عم رسول الله في المهاجرين والأنصار، ولو أذن لي في لقائه، لوجدني أحمر<sup>١٩</sup> مخشيًّا ضرابًا بالسيف.» وبلغ ذلك عليًّا فكتب إليه: إني وليتُك ما وليتُك وأنا أراك له أهلاً، وقد كانت من أبي سفيان فلتةً من أمانِي الباطل، وكذب النفس، لا توجب له ميراثًا، ولا تُحل له نسبًا، وإن معاوية يأتي الإنسان من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، فاحذر ثم احذر والسلام!

#### (٣-٣) ولايته على البصرة

ولما قُتل علي صالح معاوية زيادًا واستلحقه بنسبه ليستميله ويستصفي مودته، ثم ولّاه البصرة وأعمالها: خراسان وسجستان. ثم جمع له الهند والبحرين وعمان. فقدم زياد

البصرة والمعارضة مستفحلة، والفسوق عن الدين متفشٍ فيها، فخطب في الناس خطبته البتراء،<sup>٢٠</sup> وجدَّ في إقامة الشرائع التي قررها، فكان أول من شدد أمر السلطان، وأخذ بالظنة، وعاقب على الشبهة حتى هابه الناس، وأذعن المعارضون، وساد الأمن فكان الشيء يسقط من يد المرأة أو الرجل فما تُمَد إليه يد حتى يعود صاحبه فيجده في مكانه فيأخذه، وأصبح الناس لا يغلقون أبوابهم اطمئناناً، وقيل: إنه أول من سير بين يديه بالحراب والعمد.

### (٤-٣) ولايته على الكوفة

ولما مات المغيرة بن شعبة أمير الكوفة استعمل معاوية زياداً عليها فكان أول من جُمع له العراقيان، فكان يقيم في البصرة ستة أشهر وفي الكوفة مثلها. ولما دخل الكوفة وخطب في الناس، حصبوه، فأمسك حتى فرغوا. ثم أسرَّ إلى أصحابه أن يمسكوا الأبواب، وأخذ كرسياً وجلس على باب المسجد، وقبض على من وقعت الشبهة عليهم وقطع أيديهم.

### (٥-٣) موته

أصيب زياد بالطاعون فقضى على حياته، وزعموا أن السبب في ذلك أنه كتب إلى معاوية: «إنى قد ضببت العراق بشمالي، ويميني فارغة فاشغلها بالحجاز.» فكتب له عهده على الحجاز، فأنف أهل الحجاز من ذلك، فاجتمع نفر منهم ودعوا عليه، وكان من دعائهم «اللهم اكفنا شر زياد.» فخرجت طاعونة في إصبع يمينه. فلما حضرته الوفاة دعا شريحاً القاضي وقال: «أمرتُ بقطعها فأشر علي.» فقال شريح: «إنى أخشى أن يكون الأجل قد دنا فلتقى الله أجذم<sup>٢١</sup> وقد قطعت يدك كراهة لقاته. أو أن يكون في الأجل تأخير فتعيش أجذم ويعبِّر ولدك.» فقال: «لا أبيت والطاعون في لحافٍ واحد.» وأراد قطعها، فلما رأى النار والمكاوي جزع وعدل، وقيل: بل أتبع رأي شريح. فلما بلغ موته عبد الله بن عمر بن الخطاب قال: «أذهب ابن سمية! لا الآخرة أدركت، ولا الدنيا بقيت عليك.»

ورثاه مسكين الدارمي، فرد عليه الفرزدق هاجياً، وكان يومئذ طريد زياد، ولكنه لم يجسر أن يهجوه في حياته لشده سطوته وطول يده. وظل أبناء زياد يُعدُّون من قریش حتى استخلف المهدي العباسي فردهم على عبید.

### (٦-٣) آثاره

خطب سياسية، وإدارية، متفرقة في كتب الأدب، أشهرها الخطبة البتراء.

### (٧-٣) ميزته — الخطبة البتراء

يبدأ زياد خطبته بذكر ما يأتي أهل البصرة من المنكرات في عصيانهم الله، فيعدد لهم مساوئهم، ويؤنبهم على فسوقهم.

ثم يعلن قانوناً جديداً للعقوبات، فكان فيها أول وإل مسلم جاوز الحدود في أحكامه.

ثم يظهر لهم أنه لا يحمل الحقد لأحد ممن كان بينه وبينهم عداً، وأنه لا يبالي بمبغضيه ولا يناظرهم، ويدعوهم إلى معاودة أعمالهم.

ثم يدعوهم إلى طاعة بني أمية، والإذعان إلى سلطان الله الذي أعطاهم.

وكانت هذه الخطبة كافية لإزهاب البصريين، فإن ألفاظها انقضت على رؤوسهم انقراض الصواعق، فوجموا لها وقتاً في عضدهم، وهالهم ما فيها من تهديد ووعيد، وما إن همس هامس: «أنبأنا الله بغير ما قلت». وأراد بذلك الأحكام التي جاوز فيها السنة، حتى سمعه زياد فقال: «إنا لا نبلغ المراد فيك وفي صحابك حتى نخوض إليكم الباطل خوفاً.»

ولم يكن زياد هازلاً في كلامه، فإنه لم يلبث أن قرن القول بالعمل، فكان رهيياً في خطبته، ورهيياً في تنفيذ أحكامه.

وتمتاز خطبته بما في معانيها من جلاء وبلاغة، وعلى إيجاز كثير في اللفظ، وما في تنسيقها من فنٍّ وجمال. فإنه وقف في القسم الأول منها موقف واعظ يذكر للقوم ذنوبهم، ويذكرهم كتاب الله وما فيه من وعد طيب للمتقين، ووعيد راعب للفاسقين.

ثم إنه وقف في القسم الثاني موقف القاضي الشارع، فبين للقوم أنهم أهدثوا في الإسلام أحداثاً غير مألوفة، فأحدث لهم عقوبات غير مألوفة. ونستدل من هذا القسم أن العرب في صدر الإسلام ظلوا يحنون إلى جاهليتهم ويدعون بها؛ لأنهم رأوا في الإسلام نظماً وقيوداً لم يتعودوها، وأراد زياد أن يفهم البصريين أنه جاد في تنفيذ شرائعه، فأحل لهم معصيته إن تعلقوا عليه بكذبة: «إن كذبة المنبر بلقاء...!» ويختتم هذا القسم بدعوتهم إلى الاقتداء به وإلا ضرب أعناقهم.

ووقف في القسم الثالث موقف الحَكم النزيه العادل، المصفى من الحزازات والضغائن، المرتفع عن الأحزاب: «فُرب مبتئسٍ بقدمونا سيُسر، ومسرور بقدمونا سيبتئس.»

ووقف في القسم الأخير موقف سياسي داهية يبث الدعوة للأمويين، فطلب من البصريين السمع والطاعة، ووعدهم بقضاء حاجاتهم، وإعطائهم الرزق في وقته، وعدم حبس الجيش في أرض العدو.

ثم أفهمهم أنهم أعجز من أن يبلغوا مأرباً من أئمتهم إذا أبوا الخضوع لهم، وأن بني أمية خير لهم من غيرهم، وكان ختام خطبته وعيداً ليظل صوت التهديد يطنُّ في آذانهم: «إن لي فيكم لصرعى كثيرة، فليحذر كل امرئٍ منكم أن يكون من صرعاي...!»

### (٨-٣) منزلته

قال الشعبي: «ما سمعتُ متكلمًا على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفًا من أن يسيء، إلا زيادًا، فإنه كان كلما أكثر كان أجود كلامًا.» وقال الحسن البصري: «أوعد عمر فعفا، وأوعد زياد فابتلى.» وقال عمرو بن العاص، وقد سمعه يخطب وهو فتى: «لله در هذا الغلام! لو كان أبوه قرشيًّا لساق العرب بعصاه!» وكان الأقدار أرادت أن تحقق قول ابن العاص فيه فما استلحقه معاوية وولاه البصرة حتى لمعت عبقريته، فصاحه وحزمًا ودهاءً، فساق العرب بعصاه...!

### (٤) الحجاج (٧١٣م/٥٩٥هـ؟)

#### (١-٤) حياته

هو الحجاج بن يوسف الثقفي؛ وُلد في أيام معاوية سنة ٤١ هجرية، وقيل بل سنة ٤٢، ونشأ في الطائف، وعلم فيها الغلمان، ثم جاء الشام واتصل برُوح بن زنباع الجذامي وزير عبد الملك بن مروان، فكان في شرطته.

وأحس الخليفة أن عسكره ينحلُّ ويتراخي عنه فشكا الأمر إلى روح، فقال: «إن في شرطتي رجلًا لو قلده أمير المؤمنين أمر عسكره لأرحل الناس برحيله، وأنزلهم بنزوله، يقال له الحجاج بن يوسف.» قال: «قد قلدناه ذلك.» فما إن تولى الحجاج إمرة العسكر حتى أخذ يشدد عليهم، ويكرههم على الطاعة، فأذعنوا له ولم يعصه إلا أعوان رُوح بن

زنباع. فأمر بهم فجلدوا بالسياط وطوّفهم بالعسكر، ثم أمر بفساطيط<sup>٢٢</sup> رُوح فأحرقت. فدخل رُوح على عبد الملك شاكياً، فقال: «عليّ به». فلما دخل قال له: «ما حملك على ما فعلت؟» قال: «أنت فعلتَ فإنما يدي يدك وسوطي سوطك، وما على أمير المؤمنين إلا أن يخلف على رُوح عوض الفسطاط فسطاطين، وعوض الغلام غلامين، ولا يكسرني في ما قدمني.» فأعجب به عبد الملك، وفعل ما قال، وكان ذلك أول ما عرف من جرأته وحزمه، فوجد بعده منهلاً عذباً لإرواء آماله ومطامعه.

#### (٢-٤) ولايته على الحجاز

فلما افتتح عبد الملك العراقيين بعد مقتل مصعب بن الزبير، لم يبقَ دونه غير الحجاز وفيه عبد الله يدعي الخلافة. فقال الحجاج: «أنا له يا أمير المؤمنين، فلقد رأيت في منامي أني سلخته من جلده.» فجهز له جيشاً عظيماً فزحف به في السنة الثانية والسبعين للهجرة، فجرت بينه وبين عبد الله وقائع كثيرة، دارت فيها الدائرة على ابن الزبير. ثم حاصر الحجاج مكة سبعة أشهر، ونصب المنجنيق على أبي قُبَيْس<sup>٢٣</sup> ورمى به الكعبة، وكان يأخذ الحجر بيده ويضعه في المنجنيق؛ لأن أصحابه خافوا هتك حرمة البيت. وشدد الحصار حتى تضايق ابن الزبير، وأصاب الناس مجاعة شديدة، فتفرقوا عنه وخرجوا إلى الحجاج مستأمنين. فلم يرَ عبد الله بداً من القتال، فخرج بمن بقي معه، وحارب مستبسلاً حتى قُتل. فأرسل الحجاج رأسه إلى عبد الملك، وصلب جثته. وصار الأمر بعد ذلك لعبد الملك وبايعه أهل الحجاز واليمن فأقرَّ الحجاج أميراً على الحجاز، فجدد بناء الكعبة بعد أن هدمها، ثم أقام بالمدينة مدة فأساء إلى أهلها، وختم أيدي جماعة من الصحابة بالرصاص، وكانت ولايته على الحجاز من سنة ٧٣ إلى سنة ٧٥هـ/٦٩٢ إلى ٦٩٤م.

#### (٣-٤) ولايته على العراقيين

ثم ولاه عبد الملك العراقيين، وقد عاشت فيها الحروب الداخلية، فسار من المدينة إلى الكوفة في اثني عشر راكباً على النجائب، فدخل المسجد وصعد المنبر وهو متلثم بعمامة خز<sup>٢٤</sup> حمراء، وقال: «علي بالناس!» فحسبوه خارجياً وهموا به، وهو جالس على المنبر ينتظر اجتماعهم. فاجتمع الناس وهو ساكت قد أطال السكوت. فتناول أحدهم حصى لكي يرميه بها، فلما تكلم جعلت الحصى تتناثر من يده وهو لا يشعر رعباً ومهابة.

وخطب الحجاج يومئذ خطبته المشهورة في أهل العراق، ثم أمر كاتبه بأن يتلو عليهم كتاب الخليفة، فقرأ: «بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين إلى من بالعراق من المؤمنين سلام! فإني أحمد الله إليكم...» فصاح الحجاج: «اسكت يا غلام!» ثم قال مغضباً: «يا أهل العراق، يا عبید العصا! يسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون عليه السلام! أما والله لأؤدبنكم أدباً سوى هذا الأدب.» ثم التفت إلى الكاتب وقال: «اقرأ يا غلام الكتاب.» فلما بلغ الكاتب السلام رد أهل المجلس: «وعلى أمير المؤمنين السلام ورحمة الله وبركاته.»

ثم أمر بأن يلحق الناس بجيش المهلب<sup>٢٥</sup> لقتال الحرورية فجاءه عمير بن ضابئ الحنظلي فقال: «أصلح الله الأمير، أنا في هذا البعث<sup>٢٦</sup> وأنا شيخ كبير عليل، وابني هذا أشب مني.» فقال الحجاج: «هذا خير لنا من أبيه.» ثم قال: «ومن أنت؟» قال: «أنا عمير بن ضابئ.» قال: «ألست الذي غزا عثمان بن عفان؟» قال: «بلى.» قال: «يا عدو الله، أفلا إلى عثمان بعثت بدلاً! وما حملك على ذلك؟» قال: «إنه حبس أبي وكان شيخاً كبيراً.» قال: «أولست القائل:

هممت، ولم أفعل، وكدت، وليتني تركت على عثمان تبكي حلائله!

إني لأحسب أن في قتلك صلاح المصريين.» وأمر به فُضرب عنقه وأُنهب ماله. ثم سار الحجاج إلى البصرة وخطبهم، وتوعد من لا يلحق منهم بالمهلب بعد ثلاثة أيام. فأتاه شريك بن عمر اليشكري وكان أعور وبه فتق، فقال «أصلح الله الأمير، إن بي فتقاً وقد رآه بشر بن مروان فعذرني.» فأمر به فُضرب عنقه. فلم يبقَ بالبصرة أحد من عسكر المهلب إلا لحق به. فقال المهلب: «لقد أتى العراق رجل ذكر. اليوم قوتل العدو!» فثبتت مهابة الحجاج في قلوب أهل العراق فدانوا له.

ثم شغب عليه أهل البصرة وعلى رأسهم عبد الله بن الجارود، فأخضعهم وقتل ابن الجارود، وخرج عليه شبيب الخارجي فكانت بينهما وقائع كثيرة كُتب النصر في نهايتها للحجاج. ففترقت أنصار شبيب عنه، وتردى به فرسه من فوق جسر فسقط في الماء وغرق.

ثم خرج عليه ابن الأشعث بأكثر من مائتي ألف، فاستولى على العراق، فأمد عبد الملك الحجاج بجيش لجب. فقاتل ابن الأشعث ثمانين وقعة في ستة أشهر حتى هزمه بدير الجماجم<sup>٢٧</sup> واستنقذ العراق من يده، وقتل خلقاً كثيراً من أصحابه.

ولما حضرت عبد الملك الوفاة قال لبنيه: «أكرموا الحجاج فإنه الذي وطأ لكم المنابر، ودوّخ لكم البلاد وأذل الأعداء.» فأقره الوليد بعد أبيه على إمارته في العراقين والمشرق.

#### (٤-٤) موته

قيل إنه هلك بأكلّة<sup>٢٨</sup> في بطنه، وأصيب بالزهمير فكانت الكوائن تُجعل حوله مملوءة نارًا وتُدنى منه حتى تحرق جلده وهو لا يحس بها. وشكا ما يجده إلى الحسن البصري، فقال: «قد كنت نهيتك أن لا تتعرض للصالحين.» فقال: «يا حسن لا أسألك أن تسأل الله أن يفرج عني، ولكن أن يعجل قبض روعي، ولا يطيل عذابي.» وأقام الحجاج على ذلك خمسة عشر يومًا، ثم توفي وله من العمر ٥٤ سنة، ومدة إمارته على العراق ٢٠ سنة. مات بواسطة<sup>٢٩</sup> فدُفن بها، ثم عُفي قبره وأُجري عليه الماء لكي يخفى أثره، وكان هلكه في أواخر خلافة الوليد، وقد جعله بعضهم سنة ٧١٦م/٩٨هـ، وهذا خطأ ظاهر لأن الحجاج مات قبل الوليد والوليد توفي سنة ٧١٤م/٩٦هـ.

وقد ضرب المثل بجور الحجاج. وروي أنه أحصي من قتلهم فكانوا عشرين ألفًا ومائة ألف، وكان في سجنه بعد موته خمسون ألف رجل، وثلاثون ألف امرأة.

#### (٥-٤) آثاره

طائفة من الخطب أكثرها في التهديد، وأشهرها خطبة عند قدومه العراق، وأخرى بعد واقعة دير الجماجم، ومن مآثره أنه أكثر من نسخ مصحف عثمان، وأوعز إلى كاتبه نصر بن عاصم بإعجام الحروف للتمييز بين المتشابه منها.

#### (٦-٤) ميزته

ليست حجارة المنجنيق بأشدّ وقعًا على الناس من خطب الحجاج في تهديده ووعيده. فلقد أوتي براءة عجيبة في تصريف الكلام، على جرأة نادرة تتضاءل دونها جرأة زياد، فترى في جملة المقطعة القصيرة قوة لا تراها في غيره، ويبدو لك في ألفاظه شيء من خشونة البداوة يزيد تعابيره عنفًا على عنف.

وهو في خطبه كثير الاقتباس من القرآن، كثير الاستشهاد بالأشعار، ظاهر الحجة، يستهوي سامعيه ويملك إرادتهم، فيريهم ظلمه عدلًا، وعقابه رحمة، ويصور لأهل العراق

مساوئهم الكثيرة وتغاضيه عنها، وإحسانه إليهم، حتى يخلبهم، فيتوهموا أنه مصيب في دعواه، وأنهم هم القوم الظالمون.

فإذا أردت أن تتبين بلاغة الحجاج ودهاءه وشدة بأسه، فعليك بخطبه في أهل العراق فإنها أصدق صور لنفس ذلك الطاغية الداهية اللسان. وما قولك برجل قدم الكوفة في اثني عشر راكبًا على النجائب، فجمع الناس في مسجدها، وقام على المنبر يخطبهم مهددًا متوعدًا، على ما في ألفاظه من قوة وبداعة، معتمدًا على الشعر أناً وعلى الآيات أناً آخر. وكذلك خطبته بعد دير الجماجم، وفيها يذكّر أهل العراق غدرهم، وانضمامهم إلى الخوارج، ويذكر لهم الوقائع التي خانوا فيها الخليفة، وساعدوا أعداءه كافرين بنعمته. فهذه وتلك تشتملان على أكثر خصائص الحجاج في تفكيره وتعبيره. فقد صور لأهل العراق غدرهم ونفاقهم، فجعل الشيطان يستبطنهم ويعشش فيهم ويفرخ، فهم لا يذكرون حسنةً، ولا يشكرون نعمة. وما أكثر نعم الحجاج على أهل العراق، بعد أن أرهقهم تقتيلًا وحبسًا! ولكنه كان يسحرهم بفصاحته، ويذهلهم بمثل هذه الأقوال، فيريهم نقمته نعمة.

ولا ينبغي أن تغفل عن تأثيره الشديد بأسلوب القرآن ولا سيما حين يقول: «ثم يوم الزاوية، وما يوم الزاوية ... ثم يوم دير الجماجم، وما يوم دير الجماجم؟»

#### (٤-٧) منزلته

قال الحسن البصري: «تشبّه زياد بعمر فأفرط، وتشبه الحجاج بزياد فأهلك الناس.» وقال عبد الملك لبنيه لما حضرته الوفاة: «أكرموا الحجاج فإنه الذي وطأ لكم المنابر، ودوخ لكم البلاد، وأذل الأعداء.» ألا وإن في كلا القولين لأصدق وصف للحجاج، فإن هذا الجبار كان شديد الإعجاب بزياد، فتأثره مقتفراً<sup>٣٠</sup> رسومه، ففاقه في تهديده، وفاقه في أحكامه، ولولا هو لذهب ملك بني أمية بعد معاوية وبنيه. فإنه وطد لهم العرش وأزال خلافة ابن الزبير، ورد عنهم الخوارج، وكان قلبه ولسانه يجريان إلى نور أعدائه فرسي رهان.

#### (٥) الكتابة

قلنا في كلامنا على النثر الجاهلي: إن الإنسان الفطري لم يحتج إلى الكتابة؛ لأن هذا الفن إنما ينشأ بنشوء الجماعات المنظمة، وينمو بنمو القوى المفكرة، ويعظم بعظم الحاجة

إليه، وقد ظل العرب في جاهليتهم لا يصطنعون الكتابة إلا قليلاً، حتى جاء الإسلام بفتوحاته، وأنشأ دولة منظمة مترامية الأطراف، فمست الحاجة إلى الكتابة؛ لأن مصالح المملكة قضت بأن يكون لها دواوين تضبط شئونها، وأن يكون الخلفاء على اتصال بعمالهم، والعمال بخلفائهم، وما من سبيل إلى ذلك إلا بالكتابة، فُجّل للدواوين كتاب يتفرون على تنظيمها. ولم يكن للعرب يومئذ من الثقافة ما يمكنهم من الاضطلاع بهذه الأمور، فجعلت الدواوين على عاتق الموالي أبناء الشعوب الأعجمية المتحضرة التي قهرها المسلمون وافتتحوها بلادها، وكان هؤلاء الموالي لا يحسنون العربية في أول أمرهم، فنظموا شئون الدولة بلغاتهم، فكانت اليونانية في الشام، والقبطية في مصر، والفارسية في العراق وفارس.

وظلت كذلك حتى خلافة عبد الملك بن مروان، فشرع في نقلها إلى العربية شيئاً فشيئاً، وكان الموالي قد تعلموا لغة العرب وأتقنوها، فاستمرت إدارة الدواوين في أيديهم لبراعتهم في تنظيمها؛ ولأن العرب كانوا لا يرتاحون إلى هذه الصناعات، وربما أنفوا منها.

وأما لغة الرسائل بين الخلفاء والعمال فكانت عربية خالصة، قصيرة الجمل، بليغة التعبير، لا فرق بينها وبين لغة الخطابة، وكانت موجزة، وربما اقتصرت على جملتين أو ثلاث تامّة المعنى، كما في رسالة عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص يستنجد في مجاعة:

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصي ابن العاصي سلام. أما بعد، فلعمري،  
يا عمرو، ما تبالي إذا شِبت أنت ومن معك أن أهلك أنا ومن معي. فيا غوثاه!  
ثم يا غوثاه!

ثم في جواب ابن العاص له:

إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من عمرو بن العاص. أما بعد، فيا لبيك! ثم  
يا لبيك! قد بعثت إليك بعير<sup>٣١</sup> أولها عندك وآخرها عندي والسلام!

ولم تطل الرسائل، وتوضع لها الأصول إلا بعد أن نبغ عبد الحميد بن يحيى وكتب لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، فكان هذا المولى طليعة المترسلين البلغاء.

(٦) عبد الحميد الكاتب (٧٤٩م/١٣٢هـ)

(٦-١) حياته

هو أبو غالب عبد الحميد بن يحيى الملقب بالكاتب. شامي الأصل، نشأ بين العرب ولم يكن عربياً، وقيل: إن ولاءه في بني عامر، وكان في أول أمره يعلم الصبية وينتقل في البلدان، وحكي أنه علم في الكوفة حتى اتصل بمرwan بن محمد الأموي، وكان أميراً على أرمينية، فكتب له. فلما بويع بالخلافة أخذه معه إلى الشام. فبقي ملازماً له لا يفارقه، مع اشتداد الثورة الخراسانية وضعفه عن إخمادها، واشتد الطلب على مروان وتتابعته هزائمه، فقال لعبد الحميد: «القوم محتاجون إليك لأدبك، وإن إعجابهم بك يدعوهم إلى حسن الظن بك، فاستأمن إليهم وأظهر الغدر بي، فلعلك تنفعي في حياتي أو بعد مماتي.»

فقال عبد الحميد:

أُسِرُّ وفاءً، ثم أظهر غدرَةً فمَن لي بعذر يوسِعُ النَّاسَ ظاهِرُهُ

ثم قال: «يا أمير المؤمنين، إن الذي أمرتني به أنفع الأمرين لك وأقبحهما لي، ولكن أصبرُ حتى يفتح الله عليك أو أُقتل معك.» فلما قُتل مروان استخفى عبد الحميد عند صديقه ابن المقفع، وفاجأهما الطلب وهما في بيت واحد. فقال الذين دخلوا: «أيكما عبد الحميد؟» فقال كل واحد منهما: «أنا» — خوفاً على صاحبه —، إلى أن عُرف عبد الحميد فأخذ، وسلمه السفاح إلى عبد الجبار صاحب شرطته، فكان يحمي له طشتاً ويضعه على رأسه إلى أن مات سنة ١٣٢هـ. وقيل: إنه قُتل مع مروان في مصر، وذكر المسعودي أنه رأى له عقباً بفسطاط مصر يُعرفون ببني مهاجر، وقد كان منهم عدة يكتبون لآل طولون.

(٦-٢) آثاره

كان عبد الحميد كاتب دواوين، ولم يُعرف عنه أنه عني بتصنيف الكتب كصديقه ابن المقفع. بيد أنه نظم الشعر مثله على قلة، فرويت له أبيات لا تعدوها الجودة، وإن كانت لا تجعله في طبقات الشعراء. فإن صاحبنا توفر على إنشاء الرسائل دون غيرها، فبرع

فيها، وكان له أثر بَيِّن في تبديل أسلوبها القديم. قال ابن خلكان: «إن مجموع رسائله مقدار ألف ورقة.» ولكن لم يصل إلينا منها سوى رسالة ولي العهد، ورسالة الشطرنج، ورسالة الكتاب، ورسائل أخرى قصيرة، أو هي قطع من رسائل لم تبلغ إلينا تامة، منها رسالة في وصف الإخاء، ورسالة إلى أهله وهو منهزم مع مروان، وانتهى إلينا عنه عدة تحميدات مستقلة أو متقطعة من صدور كتبه.

وقيل: إنه لما ظهر أبو مسلم الخراساني بدعوة بني العباس كتب إليه عن مروان كتابًا يستميله ويضمنه ما لو قرئ لأوقع الاختلاف بين أصحاب أبي مسلم. وكان من عظمه يُحمل على جمل. ثم قال لمروان: «قد كتبت كتابًا متى قرأه بطل تدبيره. فإن يكن ذلك وإلا فالهلاك.» فلما ورد الكتاب على أبي مسلم لم يقرأه، وأمر بنار فأحرقه، وكتب على جُزاة منه إلى مروان:

محا السيفُ أسطارَ البلاغة وانتحى عليك ليوثُ الغابِ من كل جانب

ومهما يكن من أمر هذه الرسالة التي حُملت على جمل، وخشية أبي مسلم منها حتى أمر بإحراقها، فإنها تشير — على علاقتها — إلى أن الإيجاز الذي تعودناه في رسائل صدر الإسلام قد حل محله الإسهاب؛ وأن عبد الحميد أول من شذ عنه وأطال الرسائل فبلغ بها عدة صفحات، ودليلنا على ذلك رسالة ولي العهد، فإنها تزيد على خمس وعشرين صفحة من القطع المألوف، وآثاره متفرقة في كتب الأدب، جمعها محمد كرد علي في كتاب «رسائل البلغاء».

### (٦-٣) السياسة والاجتماع: بين الشعر والنثر

كانت المباحث السياسية، قبل عبد الحميد، تكاد تُقصر على الشعر والشعراء، وإذا عرض لها الخطباء في خطبهم فبلغة تشبه لغة الشعر، وبإيجاز لا يختلف عن إيجازه، إذا استثنينا ما أضيف إلى علي بن أبي طالب من الخطب الطويلة والعهود المسهبة المفصلة. مع أن هذه المباحث خليقة بالنثر أكثر منها بالشعر، والمنثور خليق بها أكثر من المنظوم. فتناول عبد الحميد المسائل السياسية والاجتماعية بإسهاب وتفصيل ولغة مختلفة عن اللغة الشعرية التي عُرف بها الخطباء في الجاهلية وصدر الإسلام، فجاء كلامهم نثرًا له من الشعر إيقاعه ومجازه وإيجازه، ولكن ليس هو الشعر الفني بصفاء جوهره،

وله من النثر تصرفه في الأوزان والقوافي، ونزوعه إلى المنطق والإيضاح والتعليل، ولكن ليس هو النثر الفني بخالص صفاته. ففصل عبد الحميد برسائله بين الشعر والنثر، وميز بأسلوبه أحدهما عن الآخر، وجعل المباحث السياسية في موطنها الصحيح، وإن يكن الشعراء بعده لم يتخلوا عنها أصلاً، فكان فيهم من له في السياسة جولات، ولكن النثر استطاع أن يوفيهما حقها عند ابن المقفع والجاحظ والفارابي وابن سينا، ومن جاء معهم أو بعدهم من الكتّاب الذين ذلّلوا أوضاع اللغة للأغراض العلمية والفلسفية، فلانت لهم أصلاب متونها، وأسلست قيادها في حقيقتها ومجازها، وكان لعبد الحميد فضل المتقدم في تخطيط طرائقها، وتأسيس بنيّاتها، فله من أصله العجمي ما يصدفه عن التقليد العربي الموروث، ومن ثقافته الحضرية ما يغيره بأسلوب طريف تقتضيه الحياة الاجتماعية الجديدة، فإنه لم يقتصر على العربية وآدابها بل كانت له مشاركة في العلوم الدخيلة كغيره من أبناء الموالى المثقفين، وبوسعنا أن نعلم ما ينبغي للكاتب من العلوم في عصره من رسالته التي وجهها إلى الكتّاب، وبين لهم فيها آداب الكتابة وثقافتها فقال: «فتنافسوا، يا معشر الكتّاب، في صنوف الآداب، وتفقهوا في الدين، وابدعوا بعلم كتاب الله — عز وجل — والفرائض؛ ثم العربية فإنها ثقاف ألسنتكم، ثم أجدوا الخط فإنه حلية كتبكم، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم وسيرها، فإن ذلك مُعين لكم على ما تسمو إليه هممكم؛ ولا تضيعوا النظر في الحساب فإنه قوام كتّاب الخراج.»

فإذا كانت عامة الكتّاب لا تستغني عن هذه العلوم، فأولى بكاتب الخليفة ووزيره أن يكون واقفاً عليها، متزيداً في غيرها لما نجد في رسائله من أثر اليونانية والفارسية تنم عليه أقسامها المنطقية إلى أغراض وشُعب مفصلة، وما تشتمل عليه من الآداب السياسية؛ لتقويم ولاة الأمور ورجال الدولة، وتنظيم الخطط والحركات العسكرية في الحروب، وما إلى ذلك من المواعظ والحكم التي تصلح بها الشؤون الاجتماعية، وتتهذب الأخلاق.

وقد يكون عبد الحميد استفاد من سالم كاتب هشام بن عبد الملك، فإنه كان مقرباً إليه متصلأً به، وربما كلفه الخليفة أن يكتب إلى بعض عماله، فلدينا من آثاره الباقية رسالة كتب بها عن هشام إلى يوسف بن عمر عامله في اليمن، وكان سالم يعرف اليونانية؛ لأن صاحب الفهرست يخبرنا عنه أنه نقل إلى العربية رسائل أرسطو إلى الإسكندر، ولكن لم يبلغنا من آثار هذا المولى ما يتيح لنا أن نحكم على مبلغ تأثيره في كاتب مروان، ولا على مقدار جهده في تجديد النثر، بيد أن المؤرخين القدماء يجمعون

على أن الفضل في تطويل الرسائل ووضع أصولها وتنويع فصولها يعود إلى عبد الحميد دون سواه.

## (٦-٤) أثر الدين

تصطبغ رسائل عبد الحميد بصبغة دينية ظاهرة؛ لما للقرآن من تأثير في نفوس المسلمين، وكانت آثاره في النثر أبلغ منها في الشعر، كما تبدو في خطب الإسلاميين؛ لأن الخطيب يتوخى — في الغالب — غايتين وهما إثارة العواطف والإقناع، ولا يتوخى الشاعر — في الغالب — غير الغاية الأولى، فكانت حاجة الخطباء إلى الدين أشد من حاجة الشعراء، لأنه ليس كالقرآن من كفيل بإثارة عواطف المؤمن وإقناعه، إذا دُعي إلى جهاد أو طاعة أو عصيان.

وجرى عبد الحميد في رسائله على سنة الخطباء؛ لأنه كان يقصد بها إلى ما يقصدون بخطبهم، وهو — إلى ذلك — كاتب أمير المؤمنين، ناطق بلسانه، فلا ينبغي أن تبتعد كتبه عن روح القرآن. ففيها التحميدات الطويلة، وفيها المواعظ والوصايا الدينية، وفيها الآيات الكثيرة يستشهد بها أو يتوسع في تفصيلها وتحليل معانيها، مثل قوله في الرسالة التي كتبها عن هشام إلى يوسف بن عمر، ناظرًا إلى الآية التي تقول: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾: «لتحمد الله وتشكره به. فإن الشكر من الله بأحسن المواضع، وأعظم المنازل. فازدد منه تزدد به، وحافظ عليه وتحفظ به، وارغب فيه يهد إليك مزيد الخير، ونفائس المواهب، وبقاء النعم. فأقرئ على من قبلك كتاب أمير المؤمنين إليك ليسر به جندك ورعيتك، ومن حملة الله النعم بأمر المؤمنين؛ ليحمدوا ربهم على ما رزق الله عباده من سلامة أمير المؤمنين في بدنه، ورأفته بهم، واعتناؤه بأموارهم. فإن زيادة الله تعلقو شكر الشاكرين، والسلام!»

على أننا لا نعلم شيئاً عن حياته الدينية لنتبين مبلغ ائتلافها بكتابات، وإنما نعلم أنه صديق حميم لابن المقفع، ولم يكن هذا الفارسي على شيء من الإسلام، بل كان مجوسياً على دين آباءه وأجداده، وأسلم في بني العباس إرضاءً للأمرء الذين حظي عندهم، وظل — مع ذلك — متهمًا بعقيدته. فهل جمعت الصداقة بين المؤمن والكافر دون أن تتفاعل العاطفة الدينية في قلبيهما معاً، فيجتمع على كفر أو على إيمان، كما اجتمعا على المودة والوفاء؟ أو لم يكن يجري بينهما ما يجري عادة بين صديقين مثقفين، يميلان إلى الحياة العقلية، من مجادلات فلسفية تقودهما إلى البحث في العقائد والأديان، وكلاهما مرتاض

بالآداب الفارسية والحكمة اليونانية، فيحاول أن يؤثر في صاحبه ويقنعه ويجتذبه إلى رأيه ومذهبه؟

لا نستطيع أن نقطع في الجواب عن هذين السؤالين، وإن كنا نعلم أن ابن المقفع لم يجحد مجوسيته في بني أمية، وأن عبد الحميد لم يُعْزَم في عقيدته الإسلامية، مع تأثير الفكر الأعجمي فيه، حتى إنه ما كان يستشهد بشعر ولا مثل عربي، شأنه — في ذلك — شأن ابن المقفع، وإنما يؤثر مثله الأمثال التي تذكّرنا بالحكمة الفارسية الهندية، مثل قوله في رسالة الكتاب: «وقد علمتم أن سائس البهيمة، إذا كان بصيراً بسياستها، التمس معرفة أخلاقها. فإن كانت جموحاً لم يهجها إذا ركبها، وإن كانت شَبوباً اتقاها من قبل يديها، وإن خاف منها شروداً توقاها من ناحية رأسها، وإن كانت حَرُوناً قمع برفق هواها في طرقها. فإن استمرت عطفها يسيراً فَيَسْلَس له قيادها. وفي هذا الوصف من السياسة دليل لمن ساس الناس وعاملهم وخدمهم وداخلهم.»

فكل ما نستطيع أن نقوله هو أن الإسلام أبلغ أثراً في كتاباته منه في كتابات ابن المقفع بعد إسلامه، فإن صح فيه أن الإنشاء صورة لصاحبه، فخليق به أن يكون مسلماً راسخ الإيمان.

## (٥-٦) الأهل

لم ينقل إلينا المؤرخون خبراً عن أسرته وحياته البيئية نستوضح منه نوراً يضيء مجاهل رب المنزل وأحواله الداخلية. فنحن لا نعرف شيئاً عن امرأته وبنيه لنحكم على سياسة الزوج والوالد مع أهله، ومبلغ عطفه على نسائه وعنايته بأولاده، إلا ما أمكننا أن نستخلصه من رسائله الباقية، وليس فيه كبير عناء. فله رسالة كتب بها إلى أخيه يبشره بأول مولود رزقه الله إياه، فشد به أزره على حين حاجته إليه، ولعل هذا الولد البكر هو غالب الذي يتكنى به؛ لأنه لم يذكر اسمه في كتابه، وإنما قال إنه سمّاه فلاناً، وأمل ببقائه بعده حياة وذكرى وحسن خلافة، وشكر الله فيه وحمده على الآئه، وصور عطف الوالد ورقته، وامتلاء قلبه من الغبطة والفرح، أبلغ تصوير حيث يقول: «فإذا نظرتُ إلى شخصه، تحرك بي وجددي، وظهر به سروري، وتعطف علي مني أنسة الوالد، وتولت عني وحشة الوحدة. فأنا به جِدَل في مغيبتي ومشهدي، أحاول مس جسده بيدي في الظلم، وتارة أعانقه وأرشفه، ليس يعِدله عندي عظيماات الفوائد، ولا منفسات الرغائب.»<sup>٣٢</sup>

وكأنه كان ينظر إليه وهو يتحرك ويصيح، فيكاد لا يصدق حلول هذه النعمة عليه، مع ما وهبه الله من النعم السالفة، فيخشى زوالها عنه، فيقول: «ما يُدركني به من رقة الشفقة عليه مخافة مجازبة المنايا إياه، ووجلاً من عواصف الأيام عليه.» ويسأل الله أن يجعل ما يهب من سلامته والمدة في عمره موصولاً بالزيادة، مقروناً بالعافية، محوطاً من المكروه.

فهذه الرسالة ناطقة بحب الوالد الشفيق وحنوه على أولاده، ومثلها رسالة أخرى كتبها وهو منهزم مع مروان، تطارده الأعداء، وترهقه الكوارث، فلم تشغله الهموم والأحزان عن تحبيرها إلى أهله، يذكر لهم فيها مصائب الدنيا وكرائئها، وما يلقي من الأسى في ابتعاده عنهم؛ ويبين لهم حرج الموقف وما يحدق به من خطر الأسر المهين، أو خطر الهجرة الطويلة لا رجوع بعدها إليهم، ولكنه لا يقنط من رحمة الله ومعونته. قال فيها: «وقد كتبت والأيام تزيدنا منكم بعداً، وإليكم جدّاً، فإن تتم البلية إلى أقصى مدتها، يكن آخر العهد بكم وبناء، وإن يلحقنا ظُفر جارح من أظفار من يليكم، نرجع إليكم بذل الإسار، والذل شر جار. نسأل الله الذي يُعز من يشاء ويذل من يشاء أن يهب لنا ولكم ألفة جامعة في دار آمنة، تجمع سلامة الأبدان والأديان، فإنه رب العالمين وأرحم الراحمين!»

فإذا كان المؤرخون قد أهملوا أمر الكلام على حياته في أسرته، فمن هاتين الرسالتين نتنسم أصرة الكاتب على أهله وولده.

## (٦-٦) الصديق

كان عبد الحميد، كصديقه ابن المقفع، يُجل الصداقة ويعظم شأنها، فقد سئل مرة: «أيا أحب إليك أخوك أم صديقك؟» فقال: «إنما أحب أخي إذا كان صديقي.» وقال ابن المقفع في كتابه «الأدب الكبير»: «ابذل لصديقك دمك ومالك.» ولما قُتل مروان واستخفى عبد الحميد عنده وفاجأهما الطلب، لم يتأخر عن تحقيق ما أوصى به، فأراد أن يبذل دمه لصديقه، ولكن عبد الحميد أبى أن يُقتل صاحبه فدئى له، فيكون أوفى وأكرم منه نفساً، فأبان عن حقيقة أمره، واستسلم إلى جلاديه، ولم يكن دونه وفاءً وحفاظاً على المودة عندما دعاه مروان إلى إظهار الغدر به، والازدلاف إلى العباسيين الظافرين لعله ينفعه في حياته أو بعد مماته، فأنكر واستنكف، وأثر أن يقتل معه على أن تلحقه معرفة الخيانة، وإن كان فيها نفع له أو للخليفة المقهور، ومن ساواك بنفسه ما ظلمك. فالصداقة عنده

لا تدنس بالصدر، ولو ظاهرًا، لأنه يفسدها ويكدر صفاءها في نظر الناس الذين تخدعهم الظواهر، فما ينبغي أن ينالها حيف منه، على ما لها في نفسه من كرامة وقداسة، وإن أراق في سبيلها دمه، ورفض أن يساوم عليها مروان رجاء أن ينتفع في حياته أو بعد مماته، فمن الخير أن يصبر حتى يفتح الله عليه أو يُقتل معه، وقبيح به أن يُسرّ الوفاء ويظهر الغدر: «فمن لي بعذر يوسع الناس ظاهره!» مع أنه لو جرى نزعتة الأعجمية، أو لو تحركت فيه روح شعوبية، لوجد الصلاح لأبناء قومه في مناصرة الدعوة العباسية، وقد دعمتها أسنة الفرس لتعيد مجد الأعاجم وترفع رأس الموالي، ولكن وفاءه للأمويين جعله يتنكر لها، ويحض فرق العرب على دفعها حين فاض العجم من خراسان بشعار السواد العباسي، فقال من رسالة كتبها عن مروان:

فلا تمكنا ناصية الدولة العربية من يد الفئة الأعجمية، واثبتوا ريثما تنجلي  
هذه الغمرة، ونصحو من هذه السكرة، فسينضب السيل، وتمحى آية الليل،  
والله مع الصابرين، والعاقبة للمتقين.

ولو شاء أن يستأمن إلى العباسيين ملبياً صوت عجميته لرأى من إعجابهم بأدبه، وحاجتهم إلى براعته ما يحملهم على تأمينه وتقريبه وحسن الظن به، كما قال له مروان. فصوت الشعوبية كان أخف وقعاً في أذنيه من صوت الصداقة والوفاء، فسار في ركب الأمويين حتى تقطعت الآمال وقُطعت الأعناق.

ولم تقتصر آراؤه في الصداقة على ما أوردنا من أقواله المقتطفة بل هناك رسالة له، في الإخاء، يبين فيها أسباب المودات الخالصة ودعائها بأسلوب خطابي تكثر فيه الأوصاف المجازية التي تلمس المعنى عن بعد وترسله مطلق الجناح بدون تقييد، وهي — في جملتها — لا تعدو أقواله وأفعاله التي تقدّم ذكرها، مع ما فيها من اتساع التعبير وتقليب الجمل على المعاني المتقاربة. فأهل المودات يصلون إلى الإخاء بصدق التقوى، ويبنون دعائمه على أساس البر، يشيّدُه مستعذب العشرة، فيكون قوياً صافياً من الكدر: «تسكن به القلوب، وتسمو من مواصلته الهمم عن كل زائغ معتاف ومخوف عارض.» لا يدخل على صاحبه سامة ولا ضعف عند عوارض الأقدار وحوادث الزمان بل يؤاسي في الأزمان، مقتحماً غمرات المهالك: «حتى تصير به الأقدار إلى تناهيها، ويبلغ به القضاء مقداره، غير منان النصر، ولا برمّ التعب. يرى تبعه غنماً، ونصبه دعة، وكلفه فائدة، وعمله مقصراً.»

بمثل هذه الأوصاف حدد عبد الحميد إخاء أهل المودات في رسالة كتبها إلى صديق جواباً عن سؤال له عرض فيه لهذه العلاقة الاجتماعية، وكان يود لو توسع في الموضوع، فشبب الكلام في تصنيف طبقات الرجال، ومن أين دخل عليهم نقص الإخاء؛ ولكن ورد عليه سؤال صديقه، وهو محصور العقل، متقسم الذهن في مشاغل الدولة، وما يكلفه الأمير من تدبير شئونها، والاهتمام بأحوال الخزر وبعث الرسل إلى جبال اللان والطبران وما والاهما بنوافذ أمره. فلم يتسنَّ له أن يحقق رغبته، فاكتفى بهذا القدر من صفات الإخاء، ومودة أهل الحجى، فكان فيه صادق التعبير عما يشعر به من جلال الصداقة الفاضلة وقداسة حرمتها، كما ميزها أرسطو، لا صداقة المنفعة التي ليس لها بقاء إلا ببقاء عائدتها.

### (٦-٧) الرئيس والمرعوس

يجعل عبد الحميد للفضائل الدينية والخلقية مكان الصدارة في سياسة الدولة، فينبغي للرئيس والمرعوس أن يتزينا بها في أعمالهما وعلاقتهما. فرسالة ولي العهد عظة بليغة في آداب الملوك، تطلعنا على مدى معرفته بالصفات التي تلزم الأمراء في تدبير الملك وتصريف أموره، وما يتصل بها من خصال يأخذون بها نفوسهم، وخصال يأخذون بها من دونهم. كتب بها إلى الأمير عبد الله عن أبيه مروان سنة ١٢٨هـ يأمره بأن يسير إلى ملاقاتة الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي، وكان قد استولى على الموصل وكورها، وعبد الله يومئذ نائبه على الجزيرة. فجاءت الرسالة على قسمين كبيرين، أحدهما يتعلق بالسياسة المدنية، والآخر بالسياسة العسكرية، وفي كليهما ظهرت حنكة الكاتب، وشمول ثقافته، وسعة اطلاعه، وحسن تدبيره، وغرضنا الآن القسم الأول منها، فإنه يشتمل على ما يحتاج إليه ولي العهد من أمور دينه وديناه، فيذكره أن الخليفة لم يندبه إلى هذه المهمة الخطيرة إلا لثقته بمزايه الدينية والخلقية، فيدعوه إلى التوكل على الله، وأن يقرأ كل يوم جزءاً من القرآن مهتدياً بهديه، ويحذره من الغفلة وغيرها من دخائل النقص التي يخشى عليه منها.

ويشير عليه أن تكون حاشيته وجلساؤه من المجربين الذين عرفوا بالفقه والورع والطاعة وصدق النصيحة؛ وألا يأذن لأهل مجلسه بالاسترسال في الحكايات والمضاحك التي يأنس بها ذوو الجهالة، حفاظاً على الشرف ودفعاً لمثالب الحاسدين.

ومن عيوب ذوي السلطان، وعلى الأمير أن يبرأ منها، ضعفهم عن ضبط أنفسهم في مواكبهم. إذا سايروا العامة، يستخفهم اجتماع الناس حولهم، فيكثرون من التلفت زهواً وأشراً، وربما أقبل أحدهم على مداعبة مساييره، مع أنه يحسن بالسلطان أن يظل مطرق النظر لا يتلفت إلى محدثه في موكبه، ولا يُقبل عليه بوجهه، ولا يخف في السير فيقلقل أعضاءه بالتحريك.

وعليه أن يتحرّز من أصحاب السعاية الذين يتظاهرون بالنصيحة، وغايتهم إغراؤه بغيرهم من الناس ليقوع بهم. فينبغي أن يكلف صاحب شرطته أو بعض قواده استماع أقاويلهم والفحص عنها، ليتبين صادقها من كاذبها، فإذا حَقَّت العقوبة تولاها الفاحص بنفسه، فإن أخطأ نسب الخطأ إليه، ولا يجري مكروه على يد الأمير، وأما العفو والرحمة وإخلاء السبيل فيتولاها الأمير دون غيره، وبذلك يقرن خصلتين: ثواب الله في الآخرة، ومحمود الذكر في العاجلة.

ولا ينبغي أن يصل إليه أحد من جنده وخاصته وبطانته أو من الوفود والرسل بمسألة إلا بواسطة كاتبه، فإن أراد قضاءها استقبله وقضاها له، وإلّا يُرد قضاءها، جعل رده على يد كاتبه، فيحمل اللوم عنه.

ويجمل به أن يمنع أهل بطانته وسواهم من اغتياب الناس وتمزيق أعراضهم في حضرته، وأن يستقبل محدثه والناظر إليه بإطراق جميل وسكون، فذلك أدعى للهيبه والوقار، وأن يتصفح وجوه قواده ليعرف من حضر منهم ومن غاب، فيسألهم عن أشغالهم التي منعتهم عن الحضور.

وعليه أن يتجنب حشو الكلام وترديد فضوله من نحو: اسمع، أو اعجل، أو ألا ترى، فإنها تُزري بالعاقل وتنسبه إلى العي، ومن معائب الملوك والسوقة كثرة التنخم، والتبزق، والتنحنح، والتثاؤب، والجشاء، والتمطي، وتنقيض الأصابع وتحريكها، والعبث باللحية والشارب، والمخصرة، وذؤابة السيف، والإيماض بالنظر والإشارة بالطرف إلى أحد الخدم، والسرار في المجلس، والاستعجال في الأكل والشرب.

ويختم هذا القسم بقوله: «وهذه جوامع من خصال قد لخصها أمير المؤمنين، وجمع شواهدا مؤلفاً وأهداها لك مرشدًا، تقف عند أوامرها، وتنتهي عند زواجرها، إلخ.» لأن الرسالة — في مجموعها — أمر ونهي وترغيب وترهيب، فلا يصح أن يخاطب بها وليّ العهد إلا أبوه، وهي — إلى ذلك — تناسب الحكم المطلق بالمالك الأوتوقراطية في تصنيف الرعية ثلاث طبقات، أرفعها الأشراف ورجال الدين، وأدناها طبقة العامة؛ وفي ضرورة

تحمل المرءوس تبعات الخطأ ومساوئه، ونسبة الصلاح والصواب إلى الرئيس، وهذا ما نجده — بعد عبد الحميد — في رسالة السياسة المدنية المأثورة عن الفارابي. على أنها لا تغفل الشورى، ولا تهمل النظر في أحوال السوقة وإصلاح أمورها، وإقامة قسطاس العدل في قضاياها، وفتح باب الرحمة عليها، فكانت رسالة جامعة للأدب العامة والأدب الخاصة بالملوك.

ومثلها الرسالة التي وجهها إلى كتّاب الدواوين، يوصيهم فيها بأن يلتزموا الخلال التي ينبغي أن يتحلوا بها ليكونوا خلقاء بالعمل الموكول إليهم، مبيّنًا لهم قيمة الكتابة وشرفها. فعلى الكاتب: «أن يكون حليماً في موضع الحلم، فهيمًا في موضع الفهم، مقدامًا في موضع الإقدام، محجماً في موضع الإحجام». وأن يُعرف بالعفاف فلا يختلس من مال الدولة ولا يرتشي؛ وبالعدل فلا يجور على الرعية؛ وبكتم الأسرار فلا يذيعها؛ وبالوفاء عند الشدائد وأن تكون له ثقافة عامة ومعرفة بالعلوم التي لا يستغني عنها في حرفته، وقد تقدم ذكرها في كلام سابق.

وإذا كان سائس البهيمية بصيرًا بسياستها التمس معرفة أخلاقها ليحسن قيادها ومداراتها، والكاتب بفضل أدبه وشريف صنعته، أولى بالرفق من سائس البهيمية: «فليكن على الضعيف رفيقًا، وللمظلوم منصفًا، فإن الخلق عيال الله، وأحبهم إليه أرفقهم بعياله. ثم ليكن بالعدل حاكمًا، وللأشراف مكرمًا، وللفيء موفرًا، وللبلاد عامرًا، وللرعية متألفًا، وعن أذاهم متخلفًا، وليكن في مجلسه متواضعًا حليماً، وفي سجلات خراجه واستقصاء حقوقه رفيقًا».

ومراده بالرفق ألا يتحيف بيت المال في جباية الضرائب، وألا يعنف على الشعب في استئذائها.

ويدعوهم إلى التعاون في الملمات، كما تتعاون النقابات في زماننا: «فإن نبا الزمان برجل منهم عطفوا عليه وواسوه حتى يرجع إليه حاله؛ وإن أقعد أحدًا منهم الكبر عن مكسبه ولقاء إخوانه، زاروه وعظموه، واستظهروا بفضل تجربته وقديم معرفته، وإن عرضت في الشغل محمداً، فعلى الكاتب أن يصرفها إلى صاحبه؛ وإن عرضت مذمة، فليحملها هو من دونه». إلى ما هنالك من الوصايا التي تليق بشرف الكتابة، وتحت على التزين بمكارم الأخلاق.

وكذلك رسالة الشُّطرنج، فإنها تطلعنا على مبلغ عناية الراعي بتقويم أود رعيته إذا جارت عن النهج السوي، فقد كتب بها إلى بعض الولاة يعلمه فيها أنه بلغ أمير المؤمنين

أن جماعة من المسلمين في ناحيته ينصرفون إلى لعب الشطرنج، ملتهين به عن الصلوات، تاركين أعمالهم، لا ينفكون عنه من الصباح إلى المساء، مع ما يتخلله من مداعبات سمجة وألفاظ قبيحة يظهرون بها في الأندية والمجالس؛ فاستفزع أمير المؤمنين ذلك منهم، فأحب أن يندرهم متقدماً إليه بأن يأمر عامل شرطته في إنزال العقوبة بهم، وإطالة حبس من يؤخذ منهم وهو مظهر اللعب معتكف عليه، ويوصيه بأن يطرح اسمه من ديوان أمير المؤمنين.

وهناك رسائل قصيرة أو قطع رسائل تتصل بسياسة الدولة في ما ينبغي أن تعرفه الرعية من الأنبياء التي تطلعها على عظمة الملك وقوته، وفتوحه، أو على اهتمام السلطان بأمرها، وتفقد أحوالها، وتبشيرها بسلامته عندما تدعو الحاجة، تودداً إليها، وإشعاراً لها أنه واثق بإخلاصها ومحبتها، وسرورها بهذه البشرية، لعلمها أنه لا خير لها يرجى إلا في دولته وبقاء عرشه، ويقطع بذلك قالة السوء على الذين يذيعون الأخبار الكاذبة أو الصادقة، وخصوصاً بعد انشقاق البيت المالك بعضه على بعض، مع تألب الأحزاب والخوارج، وتفاقم خطر الدعوة العباسية في خراسان، ولو انتهت إلينا رسائل عبد الحميد بأجمعها لأمكننا أن نتبين فيها من أثر السياسة المتقلبة وحالة العصر شيئاً أكثر وأوضح، وإن يكن ما بقي منها كافياً للدلالة على ما قام به في السياسة المدنية من العمل الصالح للخير والإصلاح.

## (٦-٨) السياسة العسكرية

يطلعنا القسم الثاني من رسالة ولي العهد على ما بلغ إليه عبد الحميد من ثقافة عسكرية، وعلم بفنون القتال، وعلى ما للأعاجم المستعربين من فضل في تنظيم الجيوش العربية وحسن تدريبها، إذا نظرنا إلى حالتها في الجاهلية وأوائل صدر الإسلام، ونرى ذلك ظاهراً في أنواع السلاح، ثم في الآداب العسكرية التي تُعرف اليوم عندنا بالانضباط، ثم في الخطط الحربية، ثم في حركات القتال.

## (٦-٩) السلاح

تبدو خبرة الوزير الكاتب بأنواع السلاح المعروفة يومئذ، وطرق توزيعها واستعمالها، عندما يوصي ولي العهد أن يكون للطلائع سلاح مخصوص، وللفرسان الذين يختارهم

للقاء العدو، أول ما يلقاه، سلاح آخر. فالطلّاع، في انفرادها عن الجيش الأعظم. مستهدفة للمخاطر، فينبغي أن يكون سلاحها وافيًا واقياً، من دروع ماذية الحديد، أي لينة لا تشق على لابسها، متقاربة الحلق، متلاحمة المسامير، وأسوق الحديد مموّهة الركب، خفيفة الصوغ، لوقاية سيقانهم، وسواعد بأكف وافية، طبعها هندي، وصوغها فارسي، ويَلقُ<sup>٣٢</sup> البِيضَ لحماية الرأس، فارسية الصوغ، سابغة الملابس، وافية اللين، مستديرة الطبع، مبهمة<sup>٣٤</sup> السرد، وافية الوزن، كتريك<sup>٣٥</sup> النعام في الصنعة، معلمة بأصناف الحرير وألوان الصبغ، فإنها أهيب لعدوهم. هذا ما عدا السيوف والرماح والقسي، وتلك ينبغي أن تكون من شجر الشوحط أو النبع،<sup>٣٦</sup> أعرابية التعقيب، رومية النصول، فإنها أبلغ في الغاية وأنفذ في الدروع، ويحسن بهم أن يعلقوا حقائبهم على متون خيولهم، مستخفين من الآلة والأمتعة، إلا ما لا غنى عنه، ويجب أن تكون خيولهم إناثاً مهلوبة، أي مقطوعة الأذنان، فإنها أسرع طلباً، وأبعد في اللحوق غاية، وأصبر في معترك الأبطال إقداماً. وأما الفرسان المختارة للقاء العدو فينبغي أن تكون دوابهم إناث عتاق الخيول، وأسلحتهم سوابغ الدروع وكمال آلة المحارب؛ وأن يكونوا مُلبدين بالترسة الفارسية، صينية التعقيب، مُعلمة المقابض بخلق الحديد، أنحاؤها مربّعة، ومحارزها بالتجليد مضاعفة؛ وأن تكون القسي أعرابية الصنعة، مختلفة الأجناس، ونصول النبل مسمومة، تركيبها عراقي، وترييشها بدوي، والفارسية منها مقلوبة المقابض، منبسطة السية،<sup>٣٧</sup> سهلة الانعطاف، واسعة الأسهم.

وقلما ذكر حركة عسكرية إلا بيّن سلاحها وسبيل استعماله فيها. فالدبابات<sup>٣٨</sup> التي تهاجم بها الحصون يتولى ركبها حراسة الجيش نُوباً بينهم، ويقوم العسس مقامهم في الليل مخافة البيات، وإذا وقع البيات وطرق العدو على غرة، فلا يسمح لأهل الناحية المبيته أن يجالدوه بالسيوف، لئلا يختلطوا به، فلا يميز الصاحب منهم صاحبه، ولكنهم يشرعون رماحهم ماذين لها في وجوههم، ويرشقونهم بالنبال، مُلبدين بترستهم، لازمين لمراكزهم. وكذلك يكون سلاح الذين يرسلون مدداً لهم. فمن هنا يتبين ما كان عليه عبد الحميد من الخبرة بالسلاح على اختلاف أنواعه وأساليب استعماله.

## (٦-١٠) الآداب العسكرية

تكلم عبد الحميد على الآداب العسكرية في مواضع شتى من رسالته، فألمَّ بالنظام والطاعة والتهديب، وما إليها من الخصال الكريمة التي تُطلب من الجندي ليستكمل

مزاياء الرفيعة، فكان فيها المؤدب الفاضل للجيش العربي القديم، يسُنُّ له النظم الصالحة لتدريبه وإزكاء خصاله العسكرية، وهي في جملتها توافق الأنظمة الحديثة في عصرنا، وإن تكن دونها دقة وشمولاً واتساعاً، ولها قيمة تاريخية لا تُنكر، لدالاتها على أفضل الصفات العسكرية في العصور الخالية، وعناية الأمويين بتقويم جنودهم ورياضة أخلاقهم. فالقواد مسئولون عن آداب رجالهم، مفوض إليهم الأخذ على أيديهم وتدريبهم على السمع والطاعة لأمرائهم؛ حتى يتبعوا أمرهم، ويقفوا عند نهيمهم؛ لأن استخفافهم بقوادهم استخفاف بولي العهد القائد الأكبر، وتضييعهم لأوامرهم دخول الضياع على أعماله. فيجب أن يُقَمَّعوا عن الإخلال بمراكزهم لشيء ما وُكِّلوا به من أعمالهم، فإن ذلك مفسدة للجند، معي للقواد من الجد والمناصحة والتقدم في الأحكام، ولا يُؤذَن لهم في الحرب أن ينتشروا ويضطربوا ويتقدموا طائفتهم، لئلا تصاب منهم غرة يجترئ بها العدو ويقوى ويداخله الطمع.

فعل القواد أن لا يتوانوا في قمعهم وتقويمهم ورياضتهم على الطاعة، ويحق لهم أن يعاقبهم عقوبة تأديب وتثقيف أود، ولكن لا يجوز لهم أن يبلغوا بها تلف المهجة وإقامة الحد في قطع أو إفراط في ضرب، أو أخذ مال، أو عقوبة في سفر. فهذه الأحكام يقوم بها ولي العهد بنفسه، أو صاحب شرطته بأمره، وعن رأيه وإذنه. فإنه لا ينبغي أن يذل الجنود لقوادهم. فإذا ذل الجند صعب على الأمير — بعد ذلك — أن يعنف القواد ويعاقبهم إذا أخطئوا، أو فرط منهم تقصير في شيء أسنده إليهم.

ويحسن بولي العهد أن يجعل على ساقته<sup>٣٩</sup> أوثق أهل عسكره، يأمره بالعطف على ذوي الضعف من جنده، ومن استرخت به دابته، أو أصابته نكبة من مرض أو رجلة أو آفة، ولا يأذن لأحد منهم في التنحي عن عسكره، أو التخلف بعد ترجله، إلا المجهود أو المطروق بأفة، وإذا مر به أحد متسللاً من المعسكر شده وثاقاً، وأوقره حديدًا، وعاقبه موجعًا، أو وجهه إلى الأمير لينهكه عقوبة، ويجعله عظة لغيره من الجند.

ومن فضائل الجندي أن يكف معرفته عن من يمر به من أهل الذمة أو من المسلمين، فيكون معهم حسن السيرة، عفيف النفس، متحلياً بالوقار.

وإذا تدانى الصفان، واحتضرت الحرب، فعلى الجند أن يلزموا الصمت وقلة التلفت إلى المشار له، وكثرة التكبير في نفوسهم، والتسييح بضمائرهم، لا يظهرون تكبيراً إلا في الحملات والكرات والاقتراب من العدو؛ فأما وهم وقوف فإن ذلك من الفشل والجبن.

وإن فاجأهم العدو وبيَّتهم ليلاً، فلا ينبغي أن يرفع أحد صوته بالتكبير، معلناً للإرهاب، إلا الناحية التي وقع فيها العدو، ويظل سائر الجند هادئين. وإذا اتبعوا العدو — بعد كسره — فليكونوا في سكون ريح، لا يتلفظون بالكلام القبيح، بل يكثرن التسبيح والتهليل بلا لجب وضجة ولا ارتفاع ضوضاء. فهذا مجمل ما جاء في الرسالة من تبيان فضائل الجندي المدرب، وهي، على إيجازها في هذا الموضوع، محيطة بنواحٍ مختلفة من الآداب العسكرية، أو نظام الانضباط.

### (٦-١١) الخطط الحربية

عني عبد الحميد بأن يبين لولي العهد الخطط التي يحسن به أن يترسمها في مقاتلة العدو ليأمن الكسرة، وينال النصر عليه، وإنها، وإن لم تكن خطأً واسعة النطاق، لتُلائم السلاح الذي يحاربون به، والأرض التي تتحرك العساكر عليها، وأسباب المواصلات في الزمان الخالي. فقد أوصاه بأن يكون موضع نزول الجند مستديراً ضاماً جامعاً، وألا يكون منتشرًا ولا ممتدًا، فيشق ذلك على صاحب الأحراس الذي يتولى رعاية الجيش من المفاجآت، ويكون فيه النهضة للعدو، والبعد عن المادة إن طرقت طارق في الليل.

وينبغي له أن يتعرف المواضع والمياه التي ينزل بها، فربما كان الموضع ضيقاً والمياه قليلة، فلا يمكنه القيام به ولا مطاولة العدو ومكايده، ولا يأمن هجومه عليه لإزعاجه منه، ومن الخير أن يجعل نزوله في خندق أو حصن يأمن به البيات، فيقطع لكل قائد ذرعاً من الأرض بقدر أصحابه، يحتفرونه عليهم ويطحرون له الحسك دون الرماح والرَّسَّة، لتتشب في أرجل من يدوسها من الخيل والناس الطارقين، على أن يكون له بابان يحرس كل واحد منهما قائد في مئة من أصحابه.

ويحسن بالأمر أن يجعل الحيل والخدع في مقدمة خطته المرسومة، فإن الحرب خدعة كما جاء في الحديث، والجواسيس رأس المكيدة، فعليه أن يبتهم في معسكر العدو متطعماً لعلم أحوالهم ومنازلهم ومطامعهم، وإذا تناقضوا في الأخبار، فلا يعجل إليهم بسوء الظن والعقوبة؛ لأنه لا يدري صادقهم من كاذبهم، ولعل أموراً جرت فجعلتهم يتناقضون، وليحذر أن يعرف بعضهم بعضاً لئلا يتواطئوا عليه ويمالئوا العدو؛ أو أن يُعرفوا في معسكره، وللعدو عيون راصدة، فلا يأمن أن يُبلغوا خبرهم إلى صاحبهم فيُنزل بهم العقوبة، ويكسر من نشاطهم، فيعدلوا عن استقصاء الأخبار إلى أخذها عن عُرُض من غير ثقة ولا معاينة.

ويفيض في الحديث عن الجواسيس وما يترتب على أخبارهم وصدقهم وغشهم من النتائج مما يدل على أن شأنهم في العصور القديمة لا يقل عن شأنهم في عصرنا الحاضر. ومن المكايد أن يعتمد الحيلة لشق عسكر العدو وإخراج القواد عن رئيسهم، وذلك بأن يكتبهم ويعددهم المنال والولايات لعلهم ينتقضون عليه؛ أو أن يطرح إلى بعضهم كتباً كأنها جوابات عن كتب جاءت منهم؛ وأن يكتب على أسنتهم كتباً تبلغ صاحبهم، فتحمله على اتهامهم، فقد تفضي هذه المكيدة إلى افتراق كلمتهم، وتشتت جمعهم. وعلى الجملة فالأمير مسئول عن جميع الخطط الحربية التي تمهد طريق النصر، وتساند الحركات العسكرية إذا كان لا مخلص له من القتال.

### (٦-١٢) الحركات العسكرية

كان قواد العرب يرتبون الجيش صفًا صفًا في أوائل الإسلام، ثم عمدوا إلى تقسيمه كراديس فعملهم في واقعة اليرموك، ثم أخذوا الطريقة الفضلى التي أطلق بها على الجيش اسم الخميس لترتيبه على أقسام خمسة، وهي المقدمة والساقة والميمنة والميسرة والقلب، على أشكال مختلفة من مربع أو هلال، وهذه الطريقة يوصي بها عبد الحميد ولي العهد في رسالته إليه. فإذا كان من عدوه على مسافة دانية، سار بالجيش على هذه الأهبة، قد شهروا السلاح ونشروا البنود والأعلام، ويولي شرطته وأمر عسكره أوثق قواده، ويحسن أن يكون معروف البيت مشهور الحسب، فذلك أضمن لهيبته ومناصرة عشيرته له. ويرى أن الطلائع أول مكيدة المحارب، لأنها تسعى إلى جس نبض العدو واستدراجه، والكشف عن أحواله، فيشير على الأمير أن ينتخب لها رجالاً ذوي نجدة وبأس وخبرة، كما يشير عليه أن يعنى بإقامة الأحراس، وإذكاء العيون، وحفظ الأطراف؛ وأن يجعل على الساقة أوثق أهل عسكره ليعاقب الهارب، ويعطف على الضعيف والمرضى، وخلف الساقة رجالاً من وجوه القواد في خمسين فارساً جليداً، ليُلحق من يتخلف من الجند بعد عقوبته، وليلقى الكمين إذا ظهر في مؤخرة الجيش.

وعليه أن يوكل بخزائنه ودواوينه رجالاً أميناً ذا ورع، ومعه فرسان ترافق الخزائن، ويكون العسكر مجانباً لها، متخلفاً عنها من تحوله إليها عند الجولة والفرجة.

وينبغي أن يكون الرحيل إباناً واحداً، ووقتاً معلوماً، لتخف المؤنة على الجند في معالجة أطعمتهم وأعلامهم، متى عرفوا أوان رحيلهم، ولا ينادى بالرحيل حتى يأمر صاحب التعبئة العسكر بالاستعداد لكل مفاجأة واعتداء، فيرحل الناس والخيل

واقفة، والأهبة معدّة، ويسيرون بسكون ريح وهدوء، ولا ينزلون في موضع إلا بعد الفحص عنه والتوثُّق فيه، والتحصين له، ونشر الدبابات والأحراس حوله؛ لئلا يطرقهم العدو وهم على غير منعة ووقاية.

فإن ابتلي ببيات عدوه، ظلت الناحية المطروقة لازمة مراكزها، لا تتقدم للمجادة بالسيوف، بل تمد الرماح وترشق بالنبال، وتكبر ثلاثاً ليعرف مكانها فيرسل إليها المد ليفرج عنها برماحه ونشابه.

وإذا حان اللقاء اختار من جيشه ذوي البأس والجد ممن قد اعتاد طراد الكمأة، وعُرف بالصبر على أهوال الليل، لم تضعفه السن، ولا أبطرته الحداثة، فيعرضهم رأي العين، على كُرَاعهم<sup>٤</sup> وأسلحتهم، ثم يولي على كل مئة منهم رجلاً من أهل خاصته وثقاته، ويتقدم إليه في ضبطهم، فيكونون له عدة في المفاجآت والطوارق؛ إذ لا يدري أي الساعات يحتاج إليهم، فيبعث منهم المئة بعد الأخرى بحسب حاجته.

وعندما يتواقف الجمعان للقتال فليس إلا الصمت، وقلة الجزع، والتوكل على الله، والتسبيح والتكبير في القلوب.

وأوصى الأمير أن يبعث مكبرين بالليل والنهار يطوفون على العسكر قبل الواقعة، يحضونهم على القتال، ويحرضونهم على عدوهم، ويصفون لهم منازل الشهداء وثوابهم، ويذكرونهم الجنة ورخاء أهلها وسكانها، ويحمل به — إذا استطاع — أن يباشر تعبئة الجند بنفسه مع رجال من ثقات فرسانه ذوي سن وتجربة؛ وينبغي ألا يخوض غمار الحرب إلا بعد أن يدعو العدو إلى الطاعة وترك العصيان.

فرسالة ولي العهد وثيقة تاريخية تطلعنا على ما بلغت إليه العرب، في فنون الحرب، من التنظيم والارتقاء زمن الأمويين.

### (٦-١٣) أسلوب عبد الحميد

بلغت صناعة الترسُّل عند عبد الحميد درجة رفيعة من البلاغة، وخرج بها النثر الفني إلى ميزته التي استقل أو كاد يستقل بها عن الشعر، فلم تغلب عليه النغمات والنبرات الصوتية التي نجدها في خطب علي وزياد والحجاج، ولا تلك الصور الشعرية المتلازمة في التشابيه والكنائيات والاستعارات؛ ولا ذاك الخيال المغرب الذي يرين على الحقيقة فيموهها بإغرائه وفتونه؛ ولا ذلك الإيجاز الذي يكثر فيه الحذف والتلويح، ولا يخلو بعض الأحيان عن الإخلال. فقد كتب عبد الحميد رسائله بلغة أدبية رصينة، متينة على

غير خشونة، خالية من العبث والمضاحك على غير جفاف، تنبض الحياة فيها على غير خفة وأشر، وعالج المباحث السياسية والاجتماعية بروية العاقل وأسلوب الأديب، لا ينقص الفكر، ولا يتحيف الفن، يؤثر الإسهاب على الإيجاز، ويميل إلى التفصيل أكثر منه إلى الإجمال. يتوخى بلوغ الحقيقة، ولا يعرض عن المجاز، فيكثر من الكنايات والاستعارات، ولكنها قريبة المدلول لا تجنح إلى الإغراب، وتقل عنده الصور التشبيهية، فنكاد لا نرى منها إلا ما جاء من باب المحاكاة والمماثلة مثل قوله: «وسيحتمالك كاحتمالك له، ويُعدُّ لك كاعتدالك له.» ولا نظفر بالتشبيه التصويري إلا نادراً حيث يقول: «مبهمة السرد، وافية الوزن، كتركيب النعام في الصنعة.» بيد أنه يعنى بالنعوت عناية ظاهرة، وقد يتوالى بعضها إثر بعض، فلا تثقل ولا تتنافر لما بينها من إضافات فاصلة كقوله: «فليول عليهم رجلاً ركيناً مجرباً، جريء الإقدام، ذكي الصرامة، جلد الجوارح، بصيراً بموضع أحراسه، غير مصانع، ولا مشفّع للناس.»

وتتوافر المنصوبات متتابعة في الجمل المقطعة المتوازنة، فهنا المصادر والمفاعيل، وهناك الحال والتمييز، تتداعى أصواتها متجاوبة، فتحدث في السمع وقعاً جميلاً لا يُجحد تأثيره في التعبير الأدبي.

وموازنة الجمل لها مكان الصدارة في أسلوبه، يؤثر القصيرة منها، فإذا طالت لا تسرف في الطول، ويمدها بواو العطف، فتتعاقب موصولة الأطراف. متعاشقة الأجزاء، وربما وردت مترادفة، يقلبها على المعاني المتشابهة والمتقاربة، رغبة في الإسهاب والتبليغ، واستطراباً لاتلافها وحسن موقعها. فيقول: «جريباً على مخاطر التلف، متقدماً على أدراع الموت، مكابراً لمرهوب الهول، متقحماً مخشي الحتوف، خائضاً غمرات المهالك.»

وهذه المماثلات والمترادفات لم ينهكها التعمل وفساد الذوق. فإن له من سلامة الطبع ورهافة الحس الفني ما يقصيه عن التكلف المقوت. فأنت هذه الأشياء ونظائرها جارية على سجية النفس، مليية صوت البلاغة، حرة مطمئنة في منازلها، لا مقودة مكرهة متعبة، ولم تكن الصناعة البديعية من طلباته، فقلت أسجاعه ومجانساته، فلا تشعر بها إلا إذا تلمستها؛ لأنها تمر خفيفة على الأسماع، خفية عن الأنظار، كأن بها حياء، فلا تُرنن خلخيلها ودمالجها، ولا تعرض زينتها وترجها.

ومع ما في رسائله من تقسيمات منطقية لأغراضها وأجزائها، ومع ما فيها من مباحث عقلية في السياسة والاجتماع، فإنه لم يأنس بالقياس المنطقي الذي حفلت به مصنفات صديقه ابن المقفع، وقلما ضرب الأمثال لتأييد حجته كمثل سائس البهيمة.

فليس في رسائله سوى أدلة خطابية وأوصاف أدبية تحدث تأثيراً في النفس، ولا يصح أن تُعد دعامة عقلية لآرائه، وهي إلى ذلك مطلقة العنان محطمة القيود؛ والأمثلة عليها كثيرة، ولا سيما تحديده للإخاء.

ولعل ذلك يعود إلى أن اللغة لم تكتسب في بني أمية دقة التعبير العلمي الذي أحرزته في بني العباس، على ما في طبيعة اللسان العربي نفسه من السعة والاحتمال، في استشفاف التعابير ومعاني الألفاظ، فكثُر في كلامهم التأويل واختلفت الشروح والتفاسير.

وإنشاء عبد الحميد، على جزالته وشدة أسره، لم يخالطه التعقيد، ولا نبا عنه الوضوح والسهولة، وإن لم يبلغ بهما مبلغ ابن المقفع، وربما وقعت على ألفاظ غريبة، ولكنها ليست من الحوشي المسترذل، ولا تخلو عن الرواسم المأثورة مثل قوله: «كثُر عن ناجذه في الحرب، وقام على ساق في منازلة الأقران، مستحصد المريرة»<sup>١</sup> وهي من ثقافته العربية الأصيلة في بني أمية، ونجد معها ألفاظاً جديدة عُرفت في الإسلام بعد خروج العرب من الصحراء، كالحسك والسواعد والسوق لبعض أنواع السلاح.

وعلى الجملة، فعبد الحميد من أصحاب الأساليب الشخصية التي تعرف بها أصحابها، وإنشاؤه صورة جلية على الارتياح إلى التأمل في آداب نفسه وأخلاقه الإنسانية.

## (٦-١٤) منزلته

إذا ذُكر عبد الحميد قيل إنه أول من وضع أصول الرسائل وأطالها وفصلها، وأكثر من التحميدات، واستعمل في بعض كتبه الإيجاز البليغ، وفي بعضها الإسهاب المفرط على ما اقتضاه الحال، وقيل: «فُتحت الرسائل بعبد الحميد وخُتمت بابن العميد». وقال ابن خلكان: «وكان في الكتابة وفي كل فن من العلم والأدب إماماً، وعنه أخذ المترسلون ولطريقته لزموا، ولآثاره اقتفوا، وهو الذي سهل سبيل البلاغة في الترسل». وضُرب المثل به فقيل: «أبلغ من عبد الحميد، وكان أحمد بن يوسف يقول في رسائله: «ألفاظ محكمة وتجارب محكمة». وقال ابن نباتة: «إنه البالغ إلى أعلى المراتب في الكتابة البليغة». وقال جعفر بن يحيى البرمكي: «عبد الحميد أصل، وسهل بن هارون فرع، وابن المقفع ثمر، وأحمد بن يوسف زهر». وكان أبو جعفر المنصور يقول: «غلبنا بنو أمية بثلاثة أشياء: بالحجاج وعبد الحميد والمؤذن البعلبكي».

فمن هذه الأقوال تظهر منزلة الكاتب الوزير عند الأقدمين، واتفاقهم على الإعجاب به، والإشادة ببلاغته، وتقديمه في الترسل ووضع أصوله وتنويع فصوله.

ومن كلام له نستدل على رأيه في الكتابة وما فيه من ملاءمة لأسلوبه، قال: «القلم شجرة، ثمرتها الألفاظ، والفكر بحر، لؤلؤه الحكمة.» ومن أقواله: «خير الكلام ما كان لفظه فحلاً، ومعناه بكرًا.»

وسئل مرة: «ما الذي ممكنك من البلاغة؟» فقال: «حفظ كلام الأصلع.» يعني علي بن أبي طالب، ولا خلاف أن كلام الإمام قدوة البلغاء. وإذا وجد التشابه بينه وبين عبد الحميد في بعض النواحي، فهما يفترقان في سائرهما، وكلاهما بلغ الدرجة العليا في إنشائه على طريقتيه وأسلوبه. فإن كان الإمام أفخم لفظاً، وأعرق تعبيراً، وأظهر حكمة، وأقوى شخصية؛ فعبد الحميد أكثر تفصيلاً وإيضاحاً، وأبرع سياسة، وأوسع تدبيراً، وله الفضل الذي لا يُنكر في تعبيد طريق النثر الفني، وفي ابتداء سنة الرسائل على نهجها الجديد.

## (٧) العلوم

كان من أثر اختلاط العرب بالموالي وتزاوجهم، أن فسدت ملكة اللغة، وفشا اللحن في الكلام، وكان الخلفاء جد حراس على صحة قراءة القرآن؛ فأشفقوا من أن يفضي هذا اللحن في اللفظ إلى إفساد المعنى؛ فشرعوا في ضبط إعراب الكلمات، وتحريك الحروف وإعجامها. وأول من نظر في النحو أبو الأسود الدؤلي، ويقال إن أول باب وضعه كان التعجب. وهو أيضاً أول من وضع الحركات على شكل نقط؛ فجعل الفتحة نقطة فوق الحرف، والضممة نقطة بين يدي الحرف، والكسرة نقطة من تحت الحرف، وكانوا ينقون هذه الحركات بمداد من غير لون المداد الذي يكتبون به الكلمات.

وظلت الحركات كذلك حتى زمن الحجاج بن يوسف فجعلت النقط لإعجام الحروف المتشابهة، ثم كتبت الحركات بصورتها المعروفة الآن.

ولم يقتصر اختلاط العرب بالموالي على وضع النحو والحركات والنقط، بل تعداه إلى أبعد من ذلك؛ فإن هؤلاء الأعاجم من روم وفرنس حملوا إلى الأمة العربية حضارة عادية، وعلوماً مزدهرة، فنبهت بها كامن الفكر على طلب العلم، وكان لها من القرآن والحديث حافزاً على ذلك، فتولدت في نفسها نزوع إلى التحضر والاشتغال بالعلوم. فعُنيت أولاً بدراسة القرآن وتفهم أسراره، واستنباط الأحكام منه، فنشأ علم التفسير مهدياً طريق علم اللغة، وقد اشتهر من علماء التفسير طائفة من الصحابة وغير الصحابة، وكان للموالي حظ وافر منه، من بينهم أئمة كبار كالحسن البصري، وابن سيرين، ومجاهد بن جبر وغيرهم.

ثم عُنيَت بالتاريخ رغبة في الاطلاع على أحوال الأمم القديمة، فكان القصاصون من عرب وموَالٍ يروون لها أخبار الملوك والعظماء. ذكر المسعودي: «أن معاوية كان يجلس لأصحاب الأخبار في كل ليلة بعد العشاء، فيقصون عليه أخبار العرب وأيامها، والعجم وملوكها وسياستها في رعيّتها، وسائر ملوك الأمم وحروبها ومكايدها. ثم ينام ثلث الليل ويقوم فيأتيه غلمان وعندهم كتب قد وكلوا بحفظها وقرأتها. فيقرءون عليه ما في تلك الكتب من سيرة الملوك، وأخبار الحروب ومكايدها، وأنواع السياسات. وعني المسلمون أيضاً بتدوين سيرة النبي، وأعمال صحابته. وكان يعرف علم التاريخ عندهم «بعلم أخبار الماضين».

وعرف العرب في العصر الأموي شيئاً من العلوم الدخيلة كالفلسفة، والطب، والنجوم، والكيمياء. ويرجع الفضل في ذلك إلى المدارس السريانية كمدرسة الرُّها ونصيبين، فإن المسلمين بعد أن افتتحو تلك البلاد تركوا هذه المدارس تتابع أعمالها فاستفادوا من علومها، وأخرجت لهم أطباء عُرفوا في ذلك العهد كابن أثال النصراني وكان طبيبياً لمعاوية، وماسرجويه، وكان سرياني الجنس يهودي المذهب. قيل: إنه نقل كتاباً في الطب في أيام مروان بن الحكم.

وكان أول من اشتغل بهذه العلوم من العرب خالد بن يزيد بن معاوية فإنه درس صناعة الكيمياء على راهب رومي يدعى مريانوس، فلما تعلمها أمر بنقلها إلى العربية، فنقلها له رجل اسمه اسطفان، وذكر صاحب الفهرست أن سالماً كاتب هشام بن عبد الملك نقل رسائل أرسطو إلى الإسكندر.

بيد أن صدر الإسلام لم يترك لنا من العلوم الدخيلة وغير الدخيلة، إلا أخبارها فلا يصح لنا أن نبحث عنها في هذا العصر، ولكن في عصر بني العباس.

## (٨) الرواة

كان لكل شاعر في الجاهلية رواية يروي شعره ويرويه غيره؛ لأن الكتابة لم تكن شائعة في ذلك العصر، ولولا الرواة لما وصل إلينا شيء من الشعر الجاهلي. ثم شاعت الكتابة في الإسلام بعد أن تم الأمر لبني أمية، ولكن الشعر ظل محفوظاً في صدور الرواة أو في أوراق خاصة بهم، ولم يعم تدوينه إلا في العصر العباسي الأول. على أن الرواة كثر عددهم في العصر الأموي، لأن المسلمين لما شرعوا بتفسير القرآن وضبط ألفاظه، اضطروا إلى جمع أشعار العرب وأمثالهم؛ ليستعينوا بها على تفهم الآيات وإدراك أسرارها، وكان

ابن عباس يقول: «إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله لم تعرفوه، فاطلبوه في أشعار العرب؛ لأن الشعر ديوان العرب.»

وكان لتنافس الأحزاب السياسية يدٌ في ازدياد الرواية، فكانت كل فئة تتفاخر الأخرى بشعرائها وعظماؤها، وتروي أخبارهم وأقوالهم، وأنس الرواة من الأمويين ارتياحاً إلى معرفة نوادر الأعراب وأشعارهم، فراحوا يتلقفونها بين الخيام من كل قبيلة خالصة البداوة، ويأتون بها إليهم فيصيّبون عليها نوالاً عظيمًا.

غير أن هذه الروايات لم تسلم من النحل والكذب؛ لأن الرواة لم يتورعوا من إضافة شعر إلى غير قائله، واخترع قصة لا أصل لها؛ إما للإتيان بشاهد يُعتمد عليه في المعاني أو في النحو، وإما لإرضاء شخص أو حزب بذكر مآثر من ينتمي إليه، أو لمفاكهة الخلفاء والأمراء وسواهم من الناس. فنشأ عن ذلك الشعر المنحول، ونشأ أيضًا فن القصص الخيالية كأخبار مجنون ليلي، وجميل بثينة، وعنصرة وسواهم.

وإذا كان الرواة أساءوا إلى التاريخ بما اصطنعوه من الأشعار والأخبار، فقد خدموه أجلّ خدمة بما حفظوا من أقوال أهل الخيام وعاداتهم وأخلاقهم.

ومن الرواة من عُرف بصدق الرواية كقتادة بن دِعامة السدوسي<sup>٤٢</sup> وأبي عمرو بن العلاء<sup>٤٣</sup> ومنهم من عُرف بالكذب والنحل كحمّاد، وهو أشهر الرواة الأمويين.

(٩) حماد (٧٧٢م/١٥٦هـ؟)

(٩-١) حياته — منزلته

هو أبو القاسم حمّاد بن ميسرة الديلمي الكوفي من موالي بكر بن وائل، ويلقب بالراويّة لأنه كان أعلم الناس بأيام العرب، وأشعارها، وأخبارها، وأنسابها، ولغاتها، وكان في أول أمره يصحب الصعاليك واللصوص، فنقب ليلةً على رجل فأخذ ماله، وكان فيه جزء من شعر الأنصار فقرأه حماد فاستحلاه وتحفّظه. ثم طلب الشعر وأيام العرب ولغاتهم، وترك ما كان عليه، فبلغ من العلم مرتبة سامية، واشتهر بقوة الحافظة، فرويت عنه أخبار كثيرة لا تخلو من الغلو، منها: أنه كان يروي سبع مئة قصيدة، أول كل واحدة منها: بانث سعاد، وأنه سمع الطرّمّاح الشاعر ينشد قصيدة، عددها ستون بيتًا، فقال له: «ليست لك.» قال: «كيف لا؟» قال: «إني أنشدتها بزيادة عشرين بيتًا لتعلم أنها ليست لك.» ثم أنشدتها وزاد فيها من نظمه.

وحظي حماد عند الأمويين فكانوا يستقدمونه ويسألونه عن أيام العرب وأشعارها ولغاتها، فيروي لهم وينال جوائزهم. قيل: سأله الوليد بن يزيد يوماً: «بم استحققت أن تُلقب بالراويّة؟» قال: «إني أروي لكل شاعر تعرفه أو سمعت به، ثم أروي لأكثر منهم ممن تعرف أنك لا تعرفه ولم تسمع به. ثم لا ينشدني أحد شعراً قديماً أو حديثاً إلا ميزت بينهما.» فقال له: «كم مقدار ما تحفظه من الشعر؟» قال: «كثير، ولكنني أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مئة قصيدة كبيرة سوى المقطعات، وذلك من شعر الجاهلية دون شعر الإسلام.» قال: «فإني ممتحنك.» ثم أمره بالإنشاد فجعل ينشد حتى ضجر الوليد، فوكل به من يسمع بقية القصائد واستحلفه أن يصدقه، فأنشد حماد ٢٩٠٠ قصيدة للجاهلية.

ومهما كان في هذا الخبر وما قبله من المبالغة فإنه يدل على حافظة عجيبة، ورواية واسعة عُرف بها حماد.

وأدرك راويتنا دولة العباسيين، ولكنه لم يحظ عندهم حظوته عند الأمويين فحمل ذكره. وقيل: إنه أدرك المهدي، وأن الخليفة العباسي كان يستدعيه ويستنشده، ولكنه كان يؤثر عليه المفضل الضبي لصدق روايته. وخلافة المهدي تبتدئ سنة ١٥٨ للهجرة أي بعد سنتين من وفاة حماد، فالخطأ واضح كما ترى.

وكما عُرف بالعلم وسعة الرواية، عُرف بالكذب والوضع، فكان يزيد في الأشعار التي يرويها لغيره من شعره، أو ينتحل من شعر غيره مما هو قديم لا يرويه أحد غيره ويضمه إلى شعره، فيختلط بعضه ببعض. قال المفضل الضبي: «قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده، فلا يصلح أبداً.» فقليل له: «وكيف ذلك، أيخطئ في روايته أم يلحن؟» قال: «ليته كان كذلك، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها، ومذاهب الشعراء ومعانيهم، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل، ويدخله في شعره، ويحمل ذلك عنه في الأفق، فتختلط أشعار القدماء، ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد؛ وأين ذلك؟»

واستحلف المهدي حماداً في أمر الزيادة في أشعار الناس، فأقر له بأبيات أضافها إلى زهير بن أبي سلمى، فأمر المهدي بإبطال روايته، ووصل المفضل لصدقه وصحة روايته، ولعل ذلك حدث قبل مبايعته بالخلافة.

قال ابن سلام: «وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية، وكان غير موثوق به، وكان ينحل شعر الرجل غيره، ويزيد في الأشعار.» وقال يونس: «العجب لمن يأخذ عن حماد، كان يكذب ويلحن ويكسر.»

وحامد أول من جمع السبع الطوال، وجمع أشعار أكثر القبائل، وأكثر شعراء بني أمية، قيل: إنه جعل شعر كل قبيلة أو شاعر في كتاب. فكان عنده كتاب لشعر قريش، وآخر لشعر ثقيف، وآخر لغيرهم، ولكنها ضاعت كلها وروى الناس عنه. غير أن الأدباء المدققين الذين جاءوا بعده لم يعتمدوا على الروايات التي انفرد بها دون غيره، وقد أظهر ابن سلام والأصفهاني وسواهما كثيرًا من منتحلته وأكاذيبه.

فقد رأيت أن الصدر الثاني للإسلام كان عصر يقظة وتفكير وعمل، عصر تنعم وترف، ولكن لم يطل عمره ف يتم ما بدأ به، بل أديل منه العصر العباسي، عصر حضارة الإسلام، ونهضة العلم والأدب، عصر التدوين والتأليف.

## هوامش

- (١) منجمًا: مقسطًا ينزل نجومًا أي وقتًا بعد وقت.
- (٢) «العلق»: جمع العلقة وهي القطعة اليسيرة من الدم الغليظ. ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾: الذي لا يوازيه كريم، حال من ضمير اقرأ. ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾: أي علم الخط بالقلم. ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾: أي قبل تعليمه من الهدى والكتابة والصناعة وغيرها. (تفسير الجلالين).
- (٣) الناسخ: أن يرد دليل شرعي متراخيًا عن دليل شرعي مقتضيًا خلاف حكمه، فالدليل الشرعي المتأخر يسمى ناسخًا والمتقدم يسمى منسوخًا.
- (٤) ﴿الْقَارِعَةُ﴾: أي القيامة التي تفرع القلوب بأهوالها. ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾: تهويل لشأنها وهما مبتدأ وخبر، خبر القارعة. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾: أعلمك. ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾: زيادة تهويل لها، وما الأولى مبتدأ، وما بعدها خبر، وما الثانية وخبرها في محل المفعول الثاني لأدرى. ﴿يَوْمَ﴾: ناصبه دل عليه القارعة أي تفرع. ﴿يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾: كغوغاء الجراد المنتشر يموج بعضهم في بعض للحيرة إلى أن يدعوا للحساب. ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾: كالصوف المندوف في خفة سيرها حتى تستوي مع الأرض. ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾: بأن رجحت حسناته على سيئاته. ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾: في الجنة، أي ذات رضى بأن يرضاها أي مرضية له. ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾: بأن رجحت سيئاته على حسناته. ﴿فَأُمُّهُ﴾: فمسكنه. ﴿هَآوِيَةً﴾ \* ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ﴾: أي

ما هاوية هي. ﴿نَارُ حَامِيَةٍ﴾: شديدة الحرارة، وهاء هيه للسكت تثبت وصلًا ووقفًا. (تفسير الجلالين).

(٥) ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾: أي فعلية عدة من أيام أخر يصومها بدلاً من الأيام التي أفطر فيها.

(٦) ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾: أي الذين لا يطيقونه لكبر أو مرض لا يرجى برؤه.

(٧) ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾: أي بالزيادة على القدر المذكور في الفدية.

(٨) ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: أي خير لكم من الإفطار والفدية. (تفسير الجلالين).

(٩) النشز: المكان المرتفع.

(١٠) المخصرة: كالسوط، وما يتوكأ عليه كالعصا ونحوها، وما يأخذ الخطيب

ليشير به إذا خطب.

(١١) التشديق: إخراج الكلام من الشدق.

(١٢) التقعير: إخراج الكلام من قعر الفم.

(١٣) التَّقْيَهُقُ: التنطع والتوسع في الكلام كأن الخطيب ملأ به فمه.

(١٤) هدل الشفاه: إرخاؤهما إلى أسفل.

(١٥) العارضة: البيان واللسن والقدرة على الكلام.

(١٦) التحبير: تحسين الكلام.

(١٧) الحمدلة: حمد الله.

(١٨) عبيد: غلام رومي للحارث بن كلدة، قيل: إنه تزوج سمية أم زياد.

(١٩) الأحمر: الموت الشديد.

(٢٠) الخطبة البتراء: التي لم يُذكر فيها الحمدلة والتصلية، أي أن تستهل بحمد

الله والصلاة على النبي.

(٢١) الأجم: المقطوع اليد.

(٢٢) الفساطيط: جمع الفسطاط وهو السرادق من الأبنية.

(٢٣) أبو قبيس: جبل مشرف على حرم مكة من جهة الشرق.

(٢٤) الخز: ما نُسج من الصوف والحريير أو الحريير فقط.

(٢٥) المهلب بن أبي صفرة: عامل لبني أمية حارب عنهم الخوارج، ثم تولى

خراسان من قبل الحجاج، وظل عليها حتى توفي سنة ٨٣هـ/٧٠٢م، وأشهر أولاده يزيد

بن المهلب، والمغيرة بن المهلب، قاتل الخوارج وكانت له معهم وقائع مشهورة.

- (٢٦) البعث: الجيش الذي يبعث.
- (٢٧) دير الجماجم: دير بظاهر الكوفة على سبعة فراسخ منها على طرف البر للسالك إلى البصرة.
- (٢٨) الأكلة: علة صورتها صورة القروح إلا أنها تسعى في زمان يسير في مواضع كثيرة، ولها رائحة. أو هي داء في العضو يأكل منه.
- (٢٩) واسط: مدينة بناها الحجاج بين الكوفة والبصرة سنة ٨٣هـ/٧٠٢م.
- (٣٠) مقتفراً: متتبّعاً.
- (٣١) العير: القافلة.
- (٣٢) المنفسات: الأشياء التي يتنافس بها. الرغائب: العطايا الكثيرة، جمع رغبة.
- (٣٣) اليلق: الأبيض من كل شيء.
- (٣٤) مبهمة: مغلقة.
- (٣٥) التريك: جمع تريكة وهي بيضة النعام بعد أن يخرج الفرخ منها.
- (٣٦) الشوحط: شجر تتخذ منه القسي أو هو ضرب من النبع والشريان، فما كان في قلة الجبل فنبع، وما كان في سفحه فشريان، وما كان في الحضيض فشوحط.
- (٣٧) سية القوس: ما عطف من طرفيها.
- (٣٨) الدبابة آلة تتخذ للحروب، فتدفع في أصل الحصن، فينقبون وهم في جوفها.
- (٣٩) الساقة: مؤخر الجيش.
- (٤٠) الكراع: الخيل.
- (٤١) مستحصد المريرة: أي قوي الشكيمة، مستحکم العزيمة. مأخوذ من قولهم: استحصد الحبل، أي استحکم، والمريرة: الحبل الشديد القتل.
- (٤٢) قتادة: عالم من أهل البصرة توفي سنة ٧٣٥م/١١٧هـ.
- (٤٣) أبو عمرو بن العلاء: من أشراف العرب وأعلمهم بالقراءات واللغة والأيام، وكان له شغف بالرواية يأخذها عن أعراب أدركوا الجاهلية، وكان يقول: «ما انتهى إليكم مما قاله العرب إلا أقله.» توفي سنة ٧٧٠م/١٥٤هـ.